أقدم حيزوم

هِدَايَةُ أَهْلِ الإِيمَانِ

فِي

أَنَّ «لو» تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ

كتبها

D عمر بن محمود أبو عمر

أبو قتادة الفلسطيني

ـ حفظه الله تعالى ـ

النور للإعلام الإسلامي

هداية أهل الإيمان
في
أن «لو» تفتح عمل الشيطان

الطبعة الأولى
١٤٣٣ – ٢٠١٢م

النَّاشِر :

النور للإعلام الإسلامي
Al Nur Islamic Information
Vesterbrogade 208 Box: 276 – 1800 Frederiksberg C. Denmark
Phone: (45) 2077 4828. E-mail: alnur1@hotmail.com



فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، وبالجملة فالسلامة من الخطر، أمرٌ يعزِ على البشر، فسترَ الله على من ستر وغفرَ لمن غفر:

فَانْظُرْ إِلَيْهَا نَظَرَ الْمُسْتَحْسِنِ … وَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِهَا وحَسِّنِ

وَإِنْ تَجِدْ عَيْباً فَسُدَّ الخَلَلا … فَجَلَّ مَنْ لاَ فِيهِ عَيبٌ وَعَلا

وَالحَمْدُ للهِ عَلَى مَا أَوْلَى … فَنِعْمَ مَا أَوْلَى وَنِعْمَ المَوْلَى

ثُمَّ الصَّلاةُ بَعْدَ حَمْدِ الصَّمَدِ … عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى مُحمَّدِ

وَءَالِهِ الأَفَاضِلِ الأَخْيَارِ … مَا انْسَلَخَ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ[1]

---

[1] الأبيات من «ملحمة الإعراب» للقاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري. (٤٤٦ ـ ٥١٦هـ / ١٠٥٤ ـ ١١٢٢ م).



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبيِّ الأمين، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:ـ

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :ـ

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ. وَلاَ تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا لَمْ يُصِبْنِي كَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ. وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

☆☆☆☆☆

[1] «صحيح مسلم»: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز. والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله. ح: ٦٧٢٥.

تمهيد

شكلتْ مُعَوِّقات الإرادة الإنسانية على مدار التاريخ مُعضلةً كُبرى في الشعوب والحضارات، وانحازتْ أغلب الأحيان المذاهب البشرية ـ إلاَّ القليل منها ـ إلى الأقدار الكونية ضدَّ الإنسان وإرادته، حيث جعلته مجرد ريشةٍ عاريةٍ ضعيفةٍ أمامها، لا يملك إزاءَ دفعها واتقائها إلاَّ التسليم، فمن الأديان من أَسرته ضمن الخطيئة الأُولى التي اقترفها آدم عليه السلام، فهو نجسٌ آثمٌ منذ ولادته لوراثته هذا الإثم، وأديان أخرى أَسرته ضعيفاً ضدَّ الشيطان فاتقته بالطاعة والعبادة، بعضها على وجهٍ نُسُّكِيٍّ بالدعاء والصلاة والخشوع والإخبات، وبعضها على وجه التسليم لنوازعه من الأهواء والشهوات، فأي شيءٍ يأمره به من ذلك يأتي به ولا يدفعه لتسليم أنه ضعيف أمامه، ومِن الأديان والمذاهب ما جعلتِ القدر حاكماً على الإنسان على وجه السَّوق والقِيادة، فليس له إلاَّ مُراقبة ما يقع عليه وتحمله دون دفعٍ أو مُعارضةٍ، وهذه المذاهب مع جوهرها الديني العقائدي إلاَّ أنها في الوجهُ مكرٌ يمارَسُ من قِبل «الملأ المُستقر» مِن سياسيين قادة، ومن دهاقِنة أديان يأكلون بدينهم الباطل هذا حقوق النَّاس وجُهُودهم، كل ذلك تخويفاً من المستقبل المجهول، ذلك أنَّ الحاضر عندهم أسلم وأفضل وآمن.

«غداً» في دين الله ليس وحشاً مخيفاً، و«التجربة» ليست جريمة تحرم وتمنع، و«التطلع» ليس خطيئة يُعَيَّرُ بها المرء، بل الوحش المُخيف هو «الوهم» من «الغد» والخوف من «التجربة» و«الضعف» منزلة لا تليق بالمهديِّين، ولذلك مات أعظم ما أتى به رسول الله ﷺ هو الانعتاق من «الأصنام» و«الأوثان» و«الأوهام»، فصار بذلك الإنسان المؤمن «حراً» غير مأسور، طليقاً إلى الغد، لا يخاف إثماً موهوماً، ولا معطلاً بوهم «القدر السائق» الذي يأسره.

ومع أنَّ الحادثة الأُولى لفاعلية الإسلام في تحرير إرادة العرب «الكامن، الساكن» في الصحراء عظيمة في تاريخ البشرية، بل لم تشهدِ البشرية مثيلاً لها، لا قبلها ولا بعدها، إلا أنَّ هذا الإسلامِ الفاعل ارتد «سُكُوناً ونُكُوصاً» بفعل المذاهب البشرية الجاهلية، وأعظمها شراً في ذلك الصوفية والجَبرية، ولا أقصد الصوفية بمعناها النُّسكي التعبدي بل بمعناها العقائدي والتي تقوم على قاعدة إلغاء الإرادة، يتمثلها في ذلك مقولتهم الرئيسية: «أُريد أنْ لا أُريد».

لقد كان العربي كائناً خاملاً إلاَّ على مستوى محيطه، لا يملك رؤيةً خارج أُفُقِ الصحراء التي تأسره، ففي داخلها تكمن أحلامه وأشواقه، إذ مجرد قطعة أرض خضراء في وسطها تجعل منه «مَسْلَكاً شُعُورِياً»، وجلب «سيف هندي» وقطعة قُماشٍ يمنيةٍ تُعطيه فخراً أنَّ الدنيا خضعت له ببرها وبحرها، فهو ممتلئٌ في داخله بكلِّ مشاعر الفَخر والعِزة لأنه طليقٌ في أُفق الصحراء القاحلة.

لقد جاء الإسلام لهذا الإنسان العربي ليُحول هذا الأُفق الواهم إلى أُفقٍ حقيقيٍّ، ولِيُقلب فخره وعِزَّتِه أنه سيد نفسه إلى فخر وعِزَّة الإسلام الذي يسوق الأمم إلى الهداية والقِيَّم والسعادة في الدنيا والآخرة، فشبت إرادته من حرية نفسه في محيطه إلى سيادة العالم أجمع، فلم تعدِ الصحراء ولا ضيق ذات اليد، ولا هيبة الآخر في مُلكه وسلطانه تعوقه أن يجالد ويُقاتل ويَهدي ويُعلم، فانطلقَ سيداً للكون بعد أن انطلقت إرادته، فهو لا يحمل إثماً، ولا ثأراً، ولا أسيراً لخوفٍ أو وَهْمٍ، ولا جباناً أمام موتٍ أو مخلوقٍ آخرٍ، ذلك لأنَّ أكسير الاعتزاز بالدين، والثقة بالوُعود، والرغبة في الموت ولقاء الله، وتقفر الصِّعاب لكسب الأُجور فعلتْ في نفسه الأعاجيب، فهو لا يهرب مِن المشقَّات بل يبحث عنها، ولا يلوي عُنُقَ راحلته عن ذُرى الجبال لأنه يُريد أن يكبر الله عليها، فعاد الخُلق الفِطري إلى مستقره كما قال الله تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾ [الجاثية: ١٣]، إذ صارتِ الأقدارُ الكونية خادمةً له لا قاهرةً له، وعاملةً لأمره

لا وحشاً يُنازعه، وامتزجَ مع ذلك كله تواضعٌ إنسانيٌّ راقَ بأنه عبدٌ لله، وأنه صاحب رسالة يُؤديها لهم برِفْقٍ وَحُنُوٍّ ورحمةٍ، فكان أنْ حدث ما رأته البشرية من صناعة التاريخ على وجه الفَرادة الهائلة التحديات والصِّعاب أمام أصحاب الإرادات فرصة إيمانية لتحقيق الأمر الإلهي، ولذلك هي في منهج الأنبياء ليست مما يحذر منه، ولكن مما حذروا منه هو «الرخاء» الذي يصنع «السكون» و«الارتداد إلى الداخل» فيقوم على التنافس وحروب لإخوانه والجماعة الواحدة كما قال رسول الله ﷺ «**أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ. فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ. وَلكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا. فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[1].

لقد ورثنا في يومنا هذا ديناً وَسطياً عِماده ما رُكب على «الرخاء» إذ كل أُصوله تقوم على النكوص إلى الداخل، والمُصلح فينا مَن يريد أن يضبط توزيع أو يُنمي ما خافه علينا رسول الله ﷺ «**أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ**»، وحالتْ هذه المذاهب والأديان بيننا وبين النُّور الذي في كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، والنُّور إذا اختلفت بيئته انكسر، وهكذا صار هدي الكتاب والسنَّة يدخل في كلِّ هذا التاريخ ومذاهب البشر فيه، ثم يصلنا بعد ذلك مكسوراً من خلال كثافة رغد الدنيا وانبساطها، فتحول الشرع إلى رِعاية ذلك كُلِّه، وصار خادماً تُطوع نصوصه وقواعده وأُصوله لذلك.

كان أعظم البدع وأشدها أثراً علينا هو تغيِّير بيئة الدين، لأنه بهذا تغيِّير وجهته، وقد تغيَّرت حقاً من رجاء الدار الآخرة والزهد في الدين إلى عكس ذلك كله؛ أي ضعف ذِكرى الدار الآخرة وحب الدنيا وكراهية الموت، وبيئته دين الله هو «الغزو»، أي الحركة نحو الآخر، وترك السكون، وبناء الحياة على أساس

[1] «صحيح البخاري»: ٣١٥٨. طرفاه في: ٤٠١٥، ٦١٢٥. «صحيح مسلم»: ٢٩٦١.

«الجهاد» والبذل والعطاء، لأنَّ صِبغة هذه الأُمَّة هي الخَيرية والوَسطية، وهذا يعني القيادة للمُهتدي وردِّ الضَّالِ المُعتدي.

تغيِّير وجهة الدين بالنُكوص إلى الداخل ثم تنافساً واقتتالاً بُرِّر بعناوين دينية بِدعية، فصارت صورة الرجل الصالح صورة جديدة لو رآها الفاروق لَعاقبها عِقابَ المُبتدع العاصي، فكان أنْ حلَّ «الكسل» فلما تمادى زمانه صار «عجزاً» قاهراً يملكنا رغم أُنوفنا، كمرض العِشق يبدأ بإرادةٍ وينتهي بمرضٍ قاهرٍ غالبٍ على صاحبه كالرُعاش والجُنون.

خلال رحلة الكسلِ إلى العجز لم يكن خُصومنا سكوناً ولا نِيَّاماً، بل كانوا يُعانون فقراً؛ أي تحدياً، فانطلقوا غزواً واكتشافاً، فغنيمةً وحضارةً، حتى وصلنا جميعاً إلى هذا الحال الذي يُقال فيه: وُجوده يغني عن تفسيره.

مشكلة الفقيه اليوم عدم إدراكه وجهة الدين الكُلِّي، هذا إذا كان الفقيه يحمل همَّ الإصلاح وهُمْ قِلَّة، ذلك لأنَّ جُمُوعَ الخريجين لمعاهد العلم لهم وجهة كسب الرزق بدين الله وعِلمهم كما غيرهم من أصحاب الفنونِ الأُخرى، ووقوف هذا المُصلح على الفروع إصلاحاً واجتهاداً تحت دعوى التجديد، والتنبيه على البدع النُّسُكيَّة والأخطاء العِلمية، ويزعم هؤلاء أنَّ هذا هو طريق الخلاص وبلوغ العِزة الموعودة، وهُمْ بهذا يتخوفون وراء كلماتٍ كانت تُقال في بيئة الإسلام حماية له من الوهن الداخلي، ونحن اليوم نفقد هذه البيئة أصلاً، ولذلك من غير تحويل وجهة الحركة، ومن غير تغيِّير البيئة فإنَّ العجز سيزداد لأنَّ الكسل ما زال هو شعار أهل الإسلام.

هذا الحديث الشريف يحقق للمُهتدي هذا التحويل والتغيِّير، وهو حديثٌ جامعٌ للهِداية في هذا الباب، إذ يتوجه إلى الإرادة فيهديها ويُقَوِّمُ أمرها، ويُذْهِبُ عنها أمراضها ومُعوقاتها، وإنَّ الناظر فيه لَيُدْرِكُ أَمْرَيْنِ اثنين:-

أولاهما: الشهادة أنَّ محمداً هو رسول الله حقاً وصِدْقاً، وأنَّ كلَّ كلمةٍ قالها تشهدُ له بهذه الشهادة، فإنَّ المرءَ يقرأ ويعلم ويبصر العالم قديمه وحديثه، فلا يجد قط نوراً كنُّورِ محمد ﷺ، ولا هَدْياً كهَدْيه، وإنَّ ما فينا من شُرُورٍ وضلالاتٍ، وهزيمةٍ وخزيٍ وعارٍ إنما كان بسبب آراء الرجال ومذاهب النَّاس والتنكب عن هديِّ المصطفى ﷺ، وأنَّ ما نراه من زاعمِي الفكر الإسلامي الذين يفتخرون بترديد أسماء الأغيار وحِفظ مقولاتهم والانكباب على كُتبهم إنما هو جهلٌ بما أتى به الرسول ﷺ، وإنَّ ما آتاهم إنما هو لِعَيِّ عُقولهم التي لا تُفرِقُ بين الدر والبعر، ولا بين الجواهر والخزف، وأما زعم الكفرة من العلمانيين أن إتباع الرسول ﷺ تقليدٌ وتقيِّدٌ للعقول فإنَّ الدافع لذلك هو كراهيتهم أن يكونوا عَبِيداً لله، فصاروا عَبِيداً لغيره مأسورين لِهَواه.

ثانيهما: وُجوب الصلاة والسلام عليه، فإنه ﷺ الرحمة المُهداة، فهو الذي لم يألُ جُهْداً أو طاقةً في تعليم أُمته كل الخير، وتجنيبها كل الشر كما سماه الله تعالى ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، فاللَّهُمَّ اجْزِ عنا نبيّنا محمداً ﷺ خيرَ ما جزيتَ نبيّاً عن أُمته خيراً، واللَّهُمَّ احشرنا يوم القيامة تحت لوائه، لواء الحمد.. آمين.. آمين.

* * * * *

D

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»

تصور الكلمات على معنًى صحيحٍ هو مفتاح إدراك العقول، ذلك بأنَّ الكلمات دلالة على وجودٍ ماديٍّ أو معنويٍّ، وكلما تعددتِ المعاني في اللفظ الواحد كلما كان هذا اللفظ خطراً على صاحبه، فهو كما يحمل قوة بيان أكثر من غيره إلاَّ أنه كذلك يحمل خطر الخطأ في إدراك معناه في السِيَّاق، والبيان العربي يعلم عنه تسمية الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، كما أنه يُسمى بالاسم الواحد المعاني الكثيرة[1]، ولعلَّ كلمة «إيمان» هي أكثر الكلمات العربية والشرعية التي تحوي معاني في داخلها، ولذلك فلا عجبَ أنْ تكون هي أول مسائل الخلاف التصوري الذي وقعت فيها أمة محمد ﷺ.

عظمة هذه الكلمة «إيمان» أنها أُسٌّ وجُذر الإرادة الإنسانية، فلا انبعاث لها إلاَّ بعد حُصول الإيمان، أي ثبوت صِدق الخبر أو تعيُّن الهدف، ولما كان الإنسان هو الإرادة التي تُثبت وُجوده وحياته وكذلك هَويته، فإنَّ الإنسان لا يكون إلاَّ بالإيمان أي بما يبعث الإرادة؛ وشِقَا هذا الإيمان هو تصديق الخبر وتعين الهدف، وهو الذي يُعَبِرُ عنه العلماء بقولهم: «الإيمان قولٌ وعملٌ»، فما كان من الأقوال والأعمال مما يتعلق بالأخبار كان فعل الإنسان إزاءها هو التصديق المُجرد، وما كان من الأقوال والأعمال مما يتعلق بالفِعل كان فعل الإنسان إزاءها هو التصديق والرغبة بتحصيل أُجورها، وهو الذي سميته تعين الهدف ـ أي الاحتساب ـ.

[1] انظر الفقرة: ١٧٦ من كتاب «الرسالة» للإمام الشافعي. بتحقيق وشرح أحمد شاكر ـ رحمهما الله تعالى.

فكون هذا اللفظ ؛ أي لفظ الإيمان، بهذا المعنى يعني أنَّ الإيمان هو الوجود بشِقَيْهِ : الشهادة والغيب، فيكون الإيمان صحيحاً إذا وافق هذا الوُجود، ويكون باطلاً إذا كان على خِلافه، ويكون ناقصاً إذا غابت عنه بعض حقائقه.

لتحقيق إرادة الفِعْلِ لا بدَّ مِن القُوة، فحين تكون الحقيقة الإيمانية عملاً من الأعمال فإن «الإيمان» بهذه الحقيقة لا يكون تاماً إلاَّ بإيقاعها، ولوجودها لا بدَّ مِن قوةٍ قادرةٍ على تحقيقها وإلاَّ كان غِيابها سبباً في غِياب جزءٍ من أجزاءِ الإيمان اللازمة لوجود حقيقته.

ما دخل من مفاهيم باطلة على كلمة الإيمان في التاريخ الإسلامي كان على وجهين ؛ **أولاهما**: إخراج بعض حقائق الإيمان منه، و**ثانيهما**: فساد ترتيب الأجزاء فيه.

فأما الفساد الأول فإنَّ الإيمان هو الإنسان كله كما طلبه الله تعالى أن يكون في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ١٦٣]، فالإنسان له قلبٌ يفعل ويُريد، ولسانٌ ينطق، وجوارحٌ تعمل، فكلُّ شِقٍّ من هذا قد ملأته أوامر الله تعالى بما يُناسبه من الطاعات، وكل هذه الطاعات إيمانٌ، وهي أجزاءٌ لهذا الاسم العظيم، وقد وقع أن سحب من داخل هذه الكلمة بعد أجزائها وتم قصرها على أجزاءٍ أُخرى، وبذلك تعطلت أعمال العُبودية في هذا الجانب أو ضعفت، وأيُّ تعطيلٍ لهذه الطاعة والعبادة أو تهوين لها هو تهوينٌ لدور المسلم في هذه الحياة الدنيا والحياة الأُخرى وحسرٌ لفاعليته في الوجود.

فأما الفساد الثاني فهو أن أجزاء أي شيءٍ قدريٍّ أو شرعيٍّ، ماديٍّ أو معنويٍّ لا تكون عل مرتبةٍ واحدةٍ، فكما أنَّ الوجود ليس شيئاً واحداً فكذلك أجزاؤه ليست على مرتبةٍ واحدةٍ، فهناك ما هو ركنٌ للشيءِ أو شرطٌ له، وهناك ما هو واجبٌ من واجباته، وهناك ما هو تحسيني تكميلي له، فإنْ اختل تسمية بعض

أجزائه وتنزيله عن مرتبته أو رفعه فوق درجته حصل الفساد في الاسم، إذ ذهاب الشرط والركن ذهابٌ للشيءِ، وإفسادٌ كُلي له، فقد يحكم على الإيمان بالذهاب الكلي لذهاب جزءٍ واجبٍ منه فيكون هذا فساداً، وقد يُسمى بعض أجزائه مما هو شرطٌ أو ركنٌ واجباً فلا يحكم على الإيمان بالذهاب الكُلي لذهاب هذا الجزء، وهذا فسادٌ في الحُكم سببه فساد فَهْمِ الاسم.

الأحكام الشرعية مُعَلَّقَةٌ على الأسماء، فأيُّ فسادٍ يلحق في مفهوم الاسم سيلحق في الحُكم بعد ذلك، فكلمة «مؤمن» لها مِن الأحكام الكثيرة، بل عامة أحكامِ الشرط منوطة بوجود الإيمان أو ذهاب بعضه أو كُلِّه، ولذلك كان الفساد عظيماً حين وقع الفساد في اسم الإيمان.

إذاً الفِعْلُ وفن طاعة الله تعالى هو الإيمان، والفِعْلُ إنما يقع بإرادةٍ وقُوةٍ، والإرادة فِعْلُ القلب والقوة هي فِعْلُ البدن وما معه من أدواتٍ يستعين بها، فلا بدَّ من سلامة الأعضاء وكِفايتها للفِعْلِ فإنْ لم تكُنِ الكِفاية واستعانت بما سخر لها من خلق حصل الفعل وإلاَّ تعطل ولو وُجِدتِ الإرادة.

هناك شرطٌ آخرٌ لوقوع الفعل «الإيمان» وهو عدم وُجود المانع المُكافئ للقوة أو الزائد عليها، فإنْ وُجِدَ المانع المُكافئ أو الزائد لم يحصلِ الفِعل، ولذلك لا بدَّ من وُجُودِ القوة الكافية للفِعْلِ.

غِياب الإرادة يعني الكسل، وغِياب الأداة «القوة» يعني العجز، وكِلاهما كان رسول الله ﷺ يستعيذُ بالله منهما فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ..**»[1].

وغِياب الإرادة له أسبابٌ مُتعددةٌ منها الجهل بشقيه؛ **أولاهما**: غِياب العِلم. و**ثانيهما**: غِياب الدافع وكِلاهما يُسمى جهلٌ في دين الله تعالى، وأغلب أسباب

[1] «صحيح البخاري»: ٢٧٦٢. «صحيح مسلم»: ٦٨٢٣.

غِياب إرادة الأفعال الإيمانية المُتعدية في الوُجود إنما يكون بسبب الجُبن والبخل، وقد استعاذ رسول الله ﷺ منهما كما كان يستعيذُ بالله من العجز والكسل.

هلِ القوة من الإيمان أم أمرٌ زائدٌ عليه؟

تبيَّن من الشرح السابق أنَّ الإيمان فِعْلٌ، وقد يتخلفُ الفِعْل الإيماني بسبب العجز، وهذا يدل على أنَّ القوة هي جزءٌ من أجزاء الإيمان وليست زائداً عليه، ويشهد لهذا أنَّ النبي ﷺ وصفَ النِّساء بقِلَّةِ الدين، والدين هو الإيمان، وفسر هذا الأمر بقوله: «يدعنِ الصلاة والصيام»[1]، مع أنَّ سببَ ترك الصلاة والصيام هو وُجود مانعٍ لا إرادةَ لهنَّ فيه، وهذا المانع هو عدم الطهارة الحكمية بسبب الحيض والنفاس، فكان وُجود المانع وهو أمرٌ قدريٌّ سببٌ لتخلف الفِعْلِ الإيماني الذي جعل الوصف النبوي له: نقص الإيمان والدين.

فغياب الفِعْلِ سواءً كان بسبب عجزٍ أو كسلٍ، يُؤدي إلى غِياب الإيمان فِعْلاً وهو نقصٌ في الإنسان وطاعته، وهذا ليس حديثاً عن الأُجور، فإنَّ المرءَ يبلغ بنيته الصالحة درجة الفاعل إنْ تمنى مثله لأحاديث كثيرة منها قوله ﷺ في غزوة تبوك: «**إنَّ بالمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِياً إلا كَانُوا مَعَكُمْ**». قالوا: يا رسولَ الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة، حَبَسَهمُ العُذر**»[2]. لكن هذا لا يعني أبداً أنَّ النية الصالحة التي تحقق الأجر كافية في تحقيق الفِعْلِ الوُجودي، وغِيابه نقصٌ بوجهٍ مِن الوُجوه، ولذلك وصفَ الله بعض أنبيائه بقوله: ﴿**إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ٤٥**﴾ [ص: ٤٥]، وقوله عن داود: ﴿**ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧**﴾ [ص: ١٧]. ذلك أنَّ بعض الأنبياء لم يكونوا كذلك كما قال قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿**وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ**

[1] «صحيح البخاري»: ٣٠٢، ١٤٤٤ .

[2] «صحيح البخاري»: ٤٤٢٣ .

أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ ﴾ [هود: ٩١]، ولذلك أكملُ الأنبياء في هذا هو النبي ﷺ إذ بلغَ سُلطانه ودينه أكثر مما بلغ أيّ نبيٍّ آخرٍ، عليهم جميعاً صلوات ربِّي وسلامه.

لكن هذا الحديث يبيِّنُ مُؤمناً قوياً ومُؤمناً ضعيفاً، فكِلاهما مؤمنٌ، والاختلاف في القوة والضعف، وهو بظاهره يبيِّنُ أنَّ القوة غير الإيمان، والحق أنَّ هذا من باب اجتماع الشيءِ وبعضه في سِيَّاقٍ واحدٍ كاجتماع الإيمان والعمل الصالح في سِيَّاقٍ واحدٍ كما هو كثيرٌ في الكتاب والسُّنَّة، وهنا يُعمل بالقاعدة المعلومة: «إذا اجتمعَا افترقَا، وإذا افترقَا اجتمعَا»، لأنَّ من أساليب العرب ذِكْر بعض الأجزاء مع الأصل تنبيهاً لأهميتها، كما قال تعالى: ﴿ **أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾** ﴾ [الحج: ١٨]، وهذه المذكورات هي من السموات والأرض وإنما ذُكرت للتنويه والأهمية.

فالمُؤمن بإرادته وقوله إنْ غابت عنه قوة الفِعل كان أضعف إيماناً من المُؤمن بإرادته وقوله وفِعْلِهِ لما معه مِن قُدْرَةٍ عليه، ويشهد لهذا كذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ. فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي. وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ. وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ. وَيُعْتِقُونَ وَلاَ نُعْتِقُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئاً تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ**» قَالُوا: بَلَى. يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ، ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ مَرَّةً**».

قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ. فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا. فَفَعَلُوا مِثْلَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**»[1].

فالضعيف لا يُدرك إيمان القوي، حتى لو أدرك الأجر بالنِيَّة كما تقدم، فإنَّ بلوغَ المرء درجات الأجر يكون لمعاني أُخرى غير الفِعل ومِن ذلك لحوق الذرية بالآباء في الجنَّة كما قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾** ﴾ [الطور: ٢١]، **فالقاعدة:** أنَّ المرءَ مرهونٌ بعمله هو لا عمل غيره كائناً مَن كان، **والقاعدة الثانية:** أنَّ المرءَ لا يمكن أنْ يلحقه نقصٌ بسبب عمل غيره، **والقاعدة الثالثة**: أنَّ المرءَ يُدرك درجات الجنَّة التي لغيره من الصالحين بسببٍ آخرٍ غير عَمَلِهِ، وذلك من باب الرحمة الإلهية، كل هذه القواعد هي نص هذه الآية العظيمة.

والله يقول: ﴿ **جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾** ﴾ [الرعد: ٢٣]. وهذه الأبواب من بُلوغ درجات الآخرين بغير قوةٍ ليست مما نحن فيه من بيان الأُمور القَدرية في هذه الحياة، كمثل الحديث عن حبِّ الصالحين كما في الحديث: عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ قِيلَ لِلنَّبِىِّ ﷺ الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ. قَالَ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[2]. فكل هذه معاني أُخروية لا نُدرك تأويلها ـ أي واقعها ـ يوم القيامة، وإعمال قواعد الحياة الدنيا عليها خطأ، وهذا ما أدى لابن حزم رحمه الله تعالى للقول: «إنَّ خير النَّاس بعد النبي ﷺ هنَّ أزواجه، ذلك لأنَّ أزواجه معه في الجنَّة، أي لهنَّ درجته من غير نُبوة»، وكل هذا غلطٌ سببه قِياس الغائب على الشاهد، وقِياس الآخرة على الدنيا.

---

[1] «صحيح مسلم»: ١٢٩٨ .

[2] «صحيح البخاري»: ٦١٧٠. «صحيح مسلم»: ٢٦٤١ .

معنى القوة؟

تقدم أنَّ القوة غير الإرادة، لأنَّ غِياب الإرادة كسلٌ وهو غِيابٌ لاسم الإيمان الممدوح، فلا يُقال لمن كسلتْ إرادته عن الطاعات أنه مؤمنٌ ضعيفٌ، بل هذا قد غاب عنه الإيمان ووصفه، فلا مدحَ له، ولا يُقصد من هذا غِياب أصل الإيمان الذي يخرجه عن حدِّ الإسلام إلاَّ إذا ترك رُكْناً من أركان الإيمان وليس هذا مقصوداً هنا، فالقوة هنا هي غير قوة الباعث من رجاء الدار الآخرة والخوف من العِقاب، بلِ القوة هنا هي سلامة الأعضاء وما يَعنيها، ومُكافأة الفِعل والموانع، فالذين خسروا القوة هنا هي قوة الإرادة والهمة وحضور الباعث قد غلطوا في تفسير هذا هنا، وإن كانت قوة الباعث والإرادة تقوى وتضعف، لكن دخول الإرادة في اسم الإيمان أولى مِن دخولها في اسم القوة حين اجتماع اسم القوة والإيمان معاً.

ثم إنَّ قوله ﷺ: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**» يدل على هذا لُزُوماً، فإنَّ غِياب الفِعْلِ الإيماني لعدم وُجود الإرادة لا يستحق هذا المدح الُمعادل بقوله ﷺ: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»، لأنَّ هذه الكلمة العظيمة «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**» تطمينٌ وإراحةٌ لمن أرادَ الخير فعجزَ عنه لأمرٍ قدريٍّ غلبه ولم يقوَى على دفعه، أما الذي اتكأ على كُرسيه فتدثر بالكسل والبطالة فلا يُطمأن ولا يُراح.

فالقوة إذاً أمرٌ ظاهرٌ مِن قُدرة البدن وسلامة الأعضاء، وكذلك امتلاك القوى القَدرية الُمكافئة للفِعْلِ الإيماني المطلوب والقادرة على دفع الموانع.

ومما ينبغي معرفته أنَّ كلَّ فِعْلٍ له قوة مناسبة، فالفكر والنظر قوة لأفعالٍ إنسانيةٍ كثيرةٍ، بل لا وجودَ لفعلٍ إنسانيٍّ رشيدٍ إلاَّ ومنشؤه من قوة الفكر والنظر، ولا منطلق لفعلٍ ماديٍّ نافعٍ إلاَّ وأساسه إعمالُ الفكر والنظر، وهناك أعمالٌ تحتاج إلى قِوى خاصة كالفنون التي يُعملها المرء عن طريق التفكر والدِراية والخِبرة، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث: «**أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ. أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ. أَلاَ**

إنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»[١]، وهذا القصر في الحديث إنما هو في بيان أعظم قوةٍ في باب القِتال في سبيل الله تعالى، ولا يعني أنَّ غيره ليس مِن القوة في شيءٍ، لكن هذا كقوله ﷺ: «**الْحَجُّ عَرَفَةُ**»[٢]، وكقوله: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[٣]، وكقوله: «**إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ**»[٤]، وكل ذلك لا يعني نفي غيرها من الأعمال وإنما هو لبيانِ أهمية الخبرِ فوقَ ما سِواه.

وقوله ﷺ: «**أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»، إذ اجتمع مع قوله ﷺ: «**الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..**»[٥]. كان في ذلك اجتماع أعظمِ قوةٍ مع خير آلةٍ في هذا الباب، فإنَّ المسلمين إذا امتلكوا أداة الرمي لإصابة أعدائهم عن بُعد، وأداة المُناورة إذا وقعتِ المُناوشة كان في ذلك تحقيق الخيرِ العظيم، وأخذ أعدائنا بهاتين القوتين وخاصة قوة الرمي بالطيران والصواريخ هو ما يحقق لهم الغَلبة في كثيرٍ من المواطن، بل إنَّ سبب تحقيقهم الغَلبة في مشاريعهم إنما هي قوة الرمي حين صنعوا البارود، فبِهِ استطاعوا تنفيذ إرادتهم في غيرهم حتى لو كانوا أكثر عددٍ منهم.

إذا فَهِمَ المسلم هذا الأمر وهو أنَّ القوة من الإيمان، وأنَّ الفِعْلَ لا يقع إلاَّ بقوةٍ كافيةٍ مُكافئةٍ استطاعَ أن يفهمَ كيفية تحقق الوعود الإلهية في القرآن الكريم التي رُبِطَتْ بالإيمان، فالذين يجعلون الإيمان أمراً باطنياً مَعرفياً، فإنْ زادوا على ذلك زادوا النيَّة والإرادة لا يمكن لهم أن يُصدقوا بهذه الوعود على معنىً صحيحٍ، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾

[1] «صحيح مسلم»: ٤٩٠٢.
[2] «مُسند أحمد»: ١٧١٠٢.
[3] «صحيح مسلم»: ١٥٩.
[4] «صحيح مسلم»: ٤٠٤٥، ٤٠٤٣.
[5] «صحيح البخاري»: ٢٨٥٢. «صحيح مسلم»: ١٨٧٣.

[غافر: ٥١]. لا يمكن تحققها في هذه الحياة إذا أخرج الناظر فيها معنى القوة من الإيمان، خاصة أنَّ النَّصر هنا هو بمعنى الغلبة والقهر، وإجراء إرادتك على إرادة غيرك، وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾**﴾ [النساء: ١٤١]، فإنَّ المعلومَ من وقائع الحياة والتاريخ أنَّ الكافر قد يتغلبُ على المؤمن، وهذا التغلب سببه ضعف المؤمن وقوة الكافر، فدلَّ هذا أنَّ وصفَ الإيمان هنا هو إيمانُ الفِعْلِ، وهو ها هنا إيمان الجهاد الذي يملك القُدرة على الغَلبة والظَفر على عدوِّهِ، ولذلك عدَّ بعض أهل العلم هذه الآية أمراً لا خبراً، وإنْ كانت بصيغة الخبر، لأنَّ مِن صِيَّغِ الأمر أنْ يأتي على وجهِ الخبر كقوله تعالى: ﴿**ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ**﴾ [البقرة: ١٩٧]. وكقوله ﷺ: «**إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا** ـ وأشار إلى المشرق ـ **وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا** ـ وأشار إلى المغرب ـ **وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**»[١].

وعلى هذا المعنى يكون قوله تعالى: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**﴾ أمراً إلهياً للمسلمين أنْ يعملوا وُسعهم في ردِّ سيطرة الكافر، ووُجوب مُنازعته حتى يكون الأدنى لا الأعلى كما في قوله ﷺ: «**الإِسْلامُ يَعْلُو وَلاَ يُعْلَى عَلَيْهِ**». ولذلك كان مِن أَمْرِ الرسول ﷺ في اللحظات القاسية في غزوة أُحد وهو صاعِدٌ إلى الشعب وقد علت عالية من قريش الجبل فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا**»[٢] فاشتد الصَّحابة في القِتال حتى أنزلوهم عنِ الجبل.

فدلَّ كلُّ هذا أنَّ الفكر والنظر إيمان، كما القوة إيمان، وامتلاك أدوات الفِعْلِ إيمان، وبعض هذه واجبٌ مِن واجباتِ الإيمان إذا كانت لأداء أمرٍ واجبٍ،

[1] «صحيح البخاري»: ١٩٣١.

[2] «دلائل النبوة للبيهقي»: ٢٣٧/٣. «مُسند سعد بن أبي وقاص»: ١٥٢/٢.

وبعضها واجبٌ كِفائي، وبعضها مستحبٌ، وذلك بحسبِ الفِعْلِ الشرعيِّ المطلوب ومرتبته في دين الله تعالى.

هناك أحاديثٌ شريفةٌ صحيحةٌ تشيرُ إلى فضل الضُعفاء من المؤمنين، وقد يضعها البعض موضعَ المُعارضة لذلك غلطاً، ومن ذلك قوله ﷺ: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلاَّ بِضُعَفَائِكُمْ**»[1]. وهذا حقٌّ لأنَّ الفِعْلَ الإيماني لا يكون إلاَّ بتوفيقٍ إلهيٍّ وهدايةٍ ربانِيَّةٍ، كما أنَّ من أسباب الفِعْلِ الدعاء والاستغاثة والتوكل واليقين، وهي أسبابٌ شرعيةٌ قَدَريةٌ، وضعفاء المسلمين هم أقربُ مِن غيرهم في هذا الباب، فإنَّ المُبتلى يعلمُ قيمةَ الشيءِ أكثرَ مِن مالِكِهِ، فهؤلاء يطلبون الرزق طلباً فيه معنى لا يُوجد عند طلب الغني الذي لا يخشى الفقر، وهم يطلبون النَّصر لمعاني في قلوبهم لا يُدركها الأقوياء الأسوياء، ولذلك يحصل بسببهم مِن الخير للمسلمين في باب الرزق والنَّصر ما لا يحصل لغيرهم في عالم الغيب، ومع ذلك فليس معنى هذا أنَّ الأسباب التي يحققها الأقوياء في باب الرزق وباب النَّصر منفيةٌ كما يظن البعض، إنما هو تنويهٌ لأهمية الفقير في توفيق الغني، ولأهمية الضعيف في توفيق القوي، فما يجريه الله تعالى في عالم الغيب من توفيقٍ لصاحب السبب في عالم الشهادة إنما يكون أغلبه بسبب أعمال الفقراء والضعفاء الخفية، وهذا المعنى يشبه قوله ﷺ في هذا الحديث: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**».

هذا في عالم الغيب في تفسير هذا الأمر، وأما في عالم الشهادة فإنَّ هناك وجوهاً كثيرة تفسر هذا الحديث، ذلك لأنَّ الفقيرَ والضعيفَ سببِ تحريضٍ للفِعْلِ كقوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥**﴾ [النساء: ٧٥]، فقد حرضَ الله عباده المؤمنين الأقوياء على الجهاد بما يقع

[1] «صحيح البخاري»: ٢٨٩٦.

على الضعفاء مِن ظُلْمِ الكافرين، فالمؤمن القوي يَغار أن يرى مؤمناً مُستضعفاً، والمؤمن الغنيّ يغار أن يرى مؤمناً فقيراً، فيكون هذا سبباً لفعلٍ إيمانيٍّ يزيل به فقر الفقير واستضعاف الضعيف، وهذا رزقٌ ونصرٌ.

كما أنَّ وجود التنوع سببٌ للفِعْلِ، فلولا وجود الفقير لم تكنِ الصدقة، والصَّدَقَةُ سببُ رزقٍ للغنيِّ وللفقير معاً، فللغني على قاعدة القرآن: ﴿**هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾**﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقاعدة: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٧]، وللفقير فإنَّ الصَّدَقَةَ تُغْنِيهِ وتَدْفَعُ فَقْرَهُ، وكذلك المُستضعف يكون سبباً للجهاد الذي يتحقق به النَّصر ويُدفع به الاستضعاف عنِ المسلمين، وأهل النظر في الوجود والسنن يقولون إنَّ الجمال لا يكون إلاَّ بالتنوع، ولا يكون الكمال إلاَّ بوجود الشيءِ وضدِّه، فلولا الفقير لا تكون الصَّدقة، والصَّدقة عملٌ جماليٌّ يتحقق به الكمال الإنساني، ولولا الاستضعاف لم تكنِ المُدافعة، وبالمُدافعة يتحقق جمال الوجود وكمال الإنسان، ولذلك كان هذا التنوع والتَّضَادُّ سبباً من أسباب الوجود كُلِّهِ كما قال رسول ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[1].

فالقوة إذاً أساسُ الوُجود، فيها يحصل التغيِّير، فإنْ كانتْ للحقِّ كان تغيُّراً إلى الصلاح، وإنْ كانت للباطل كانت تغيُّراً للفساد، وأما عالم الوجود فلا يعترف بالنوايا ولا الإرادات ولا المعارف الذهنية البحتة، فهذه كلها تحتاج إلى أرجل وأدوات وقوة لتحقق وُجودها في عالم الشهادة، ولذلك فإنَّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]. إنما معناه أنْ يُغيِّروا قُواهُمْ واتجاهها، فلا بدَّ مِن تغيُّرِ عالمِ الوعيِّ والنظرِ، لأنَّ العقائد الباطلة والأفكار الفاسدة سببٌ لتغيُّرِ النَّاس مِن العِزَّةِ إلى الذِّلَةِ، ومِن الكِفاية إلى الضيَّاع

[1] «صحيح مسلم»: ٦٩١٤ .

والذهاب، وكذلك لا بدَّ من تغيُّرِ القوة حتى تُعادل الوجود المتغيِّر، فحين نبه رسول الله ﷺ إلى مُقاتلة أقوامٍ غير العرب وقال: «.. **وَتُقَاتِلُونَ قَوْماً صِغَارَ الأَعْيُنِ حُمْرَ الْوُجُوهِ..**»[1]. إنما هو تنبيهٌ لوجوبِ إعداد القوة المُكافئة لقتال هؤلاء، وهو قتالٌ يختلف عن قِتال العرب بعضهم لبعضٍ، وأما الذين يقصدون قوله تعالى: ﴿**مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ على النيِّات والمعارف الذِهنية العِلمية فقط فهؤلاء لهم عالمٌ آخرٌ غير عالم الشهادة هذا، والعجيب أنَّ النَّاس؛ مُسْلِمِهم وكافِرِهِم، يقولون بأنَّ المرءَ لا يتغيَّر ما به مِن فقرٍ إلى غنىً ومن جوعٍ إلى شبعٍ إلاَّ بعد أن يُغيِّر فِكره ووِجهته، وبعد أن يسلك سُبل السُنن العِلمية في ذلك. ولكن هذا النوع من مشايخ العصر وزاعمِي الفكر والنظر، والمُتصورين لباب إصلاح عالم الإسلام والمسلمين لا يُطبقون هذه المبادئ الفِطرية هنا، وسبب هذا غلبة دين الصوفية والإرجاء والجبر على عقول المسلمين

القوة عَرَضٌ

والعَرَض في لغة المُتكلمين هو ما أمكنَ تحوله أو زَواله، والقوة كذلك، فهي مَلكةٌ تُكتسب، وكل ما كان مُكتسباً بالإرادة يمكن زواله كذلك، وكما أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ، والقوة جزءٌ من أجزاء الإيمان فهي تزيدُ وتنقصُ، وهي في زيادتها ونُقصانها قد تكون في مُقابل شيءٍ ثابتٍ أو مُقابلَ شيءٍ متغيِّرٍ نسبيٍّ، فالقوة للصلاة في الأغلب وفي الظروف العادية تكون شيئاً ثابتاً، وكذلك الصيام، لكن إن كانت مقابل شيءٍ متغيِّرٍ فإنها تكون نسبيَّة كذلك، فما كانت قوة مُكافئة للفِعْلِ في زمنٍ مَا قد تكون لا تصبح مكافئة في زمنٍ آخرٍ، وذلك لتغيُّرِ قوةِ المُقابل، وبهذا يكون الابتلاء الربَّاني للأُمَّةِ المُكلفة بالعِزَّة، لأنَّ العِزَّة كما تقدم

[1] «مُسند أحمد»: ٩٩٤٩.

تكليفٌ، واستعلاء الإيمان عملٌ إيمانيٌّ واجبٌ على المؤمن عليه أن يسعى لتحصيله وتحصيل أسبابه وإنْ قصر كان آثماً.

وإذا كانتِ القوة عَرَضٌ، والعَرَضُ تقعُ عليه عوامل الزمن فإنَّ تحول هذا العَرَض إلى مرضٍ إنما يكون بسبب تراكم الكسل والإهمال خلال عاملِ الزمن، ولذلك فإنَّ العجز الذي يُصيب الأُمم قد يكون طارئاً لظرفٍ داهِمٍ، كأنْ تُكلف الأُمَّة بالعِزَّةِ والاستعلاءِ وهي ضعيفةٌ في ظرفها من حصول هذا، فهذا عجزٌ داهمٌ، وهذا كان شأن الصحابة في مكة المُكرمة، وقد سعوا زماناً حتى زال هذا العجز عن طريق الإرادة والفعل في الاتجاه الصحيح لتحصيل القوة، وكان مِن أقدار هذا الوضع غِيَّاب العِلم الفاسد والانحراف الفكري لوجود الهدي الصافي مع النبي ﷺ، فلم يكنْ من مُعَوِّقٍ ذاتيٍّ إلاَّ غِيَّاب القوة ووجود المانع من قريش والأعداء.

ولكن قد يكون العجز سببه كسل عن حماية مكاسب القوة في البناء الحضاري القائم، أو طروء مذاهب باطلة تدمر إرادة الاندفاع في مُكافئة المُقابل المطلوب، وهذا ما وقعت فيه هذه الأُمَّة، إذ كان لها مِن البناء الحضاري الشامخ، وكان لها مِن القُوة التي تدفع الأغيار عنِ الاقتراب من مُستوياتها أو قريباً منها، فحيث كانتِ الأُولى لم يكنْ هناك مَن يستحق أن يُسمى ثانياً، لكن وقعَ الكسل والترف والارتداد نحو الداخل والصراع فيه، ثم غزتِ المذاهب الباطلة القِيادات العِلمية الحامية لإطار الأُمَّةِ وبُنْيَّانِها، فصار الكسل عجزاً، حيث غابتِ القوة، ووقعَ أمرٌ آخرٌ أخطرَ من غِيَّاب القوة وهو غِيَّاب العِلْمِ السَنني الصحيح المُوافق للحقِّ الواقع، وهو أكبر مانعٍ في حُصول الانطلاق الثاني نحو دفع العجز الحاصل بعد ذلك.

لقد وصف رسول الله ﷺ حال الأُمَّة في الغُربة الثانية، وقال: «.. **غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ**..»[1]، فإنْ كانتِ الغُربة الأُولى تُعاني قِلَّةَ الأَتْباع، وهو سببٌ مِن أسباب العِزَّة، فحيث كَثُرَ الأتباعُ حصلت بهمُ القوة، لكنَّ الغُربة الثانية ليست منوطة بالقِلَّةِ أبداً، إنما هي منوطة بأمرٍ آخرٍ، وهو غِيَّاب فاعلية هذه الأعداد، وهذا دليلٌ أنَّ الكثرة ليست قوة في ذاتها إلاَّ على معنىً معينٍ.

فهذه الكثرة «**غُثاء**»، والغُثاء صفته غياب الإرادة والتأثير، بل هو متأثرٌ قابلٌ، تُحركه الأمواج التي تسيرُ تحته، وهو مجرد قشٍ رخيصٍ خفيفٍ طافٍ، أي زبدٌ ذاهبٌ.

ما الذي ينقص الأعداد لتحقيق الفاعلية؟

إنَّ أسبابَ ذهابِ القوة هو الكسل المُتراكم الذي تحول عجزاً، وطروء مذاهب الانحراف التي تكفي دور الإرادة البشرية في بناء هذه الدنيا، ولإعادة بناء الفاعلية في الأُمَّة لا بدَّ من عِلْمٍ باعثٍ للإرادة لتحصيل القوة، مع عِلْمٍ ويقينٍ على صِدْقِ الوُعود بأنَّ الغربةَ زائلة، وكون المسلم يعيش في هذه الدنيا تحت قاعدة: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ** ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الفرقان: ٣١]. فإنَّ هذا البناء لا يكون إلاَّ ضمن الصِّراع مع الآخر، وهو صراعٌ وُجُودي، لا يكون أحدهما قاهراً باهراً إلاَّ بإزالة الآخر عنِ القيادة والتأثير والقهر.

فالفاعلية ليست مُشاركة للآخر في البناء، ولا تفعيل وُجُودك ضِمْنَ سلطان الآخر وحضارته كما يريدها بعض النَوْكَى[2]، وهذا إنْ قبل من بعض مذاهب

[1] «مُسند أحمد»: ٢٢٠١٩ .

[2] **نوك**: النون والواو والكاف كلمةٌ واحدة، هي النَّوَاكة والنُّوك وهي الحُمق، ورجلٌ أنْوَك ومُسْتَنْوِكٌ، وهم نَوْكَى. «مقاييس اللغة» لأحمد فارس: ص٩٦٨ .

البشر الضالة التي لا تملك وُعُوداً ربَّانيَّة تُؤمنُ بها فإن هذا في الإسلام غير مقبولٍ وضلال، ولا يمكن انسجامه مع الإسلام إلاَّ بتزوير سِمَّة الإسلام وإلغاءِ استعلائه وعِزَّتِهِ، فإنْ وقعَ هذا لم يكنْ إسلاماً قط.

إنما الفاعلية التي ينشدها الإسلام لأهله هي فاعلية العزَّة والاستعلاء والتميُّز، وهذه لا تُبنى إلاَّ مِن خلال عِلْمٍ سليمٍ يُوافق الحقَّ، والعلم هو إحدى مُكونات الإرادة، كما أنَّ قوة الباعث هي المُكون الآخر لها، ولا بدَّ كذلك مِن قوةٍ تنمو بطريقةٍ سَننيةٍ، يكون كل عددٍ فيها ولو قليلٌ خروجٌ عن سُلطان الآخر ومنازعٌ له، ولذلك كان سِمَّةَ الأنبياء في بِناء أفرادهم على هذا المعنى هو حصول الهجرة، وهي في معناها العام تعني التميُّز والبناء بعيداً عن سُلطان الآخر، وهذا إنْ كان ممنوعَ الحصول في ظروف فيمكن تحققه من خلال فِعْلِ موسى وهارون عليهما السلام مع قومهما في مصر تحت سُلطان فرعون القاهر، كما قال تعالى عنهما: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس: ٨٧]. وهذه دعوةٌ ربانيَّةٌ إلى البناء الخاص الرافض لبناء فرعون وجُنوده، والتي سيكون من خِلالها الصراع حتى يحكم الله بحكمٍ، كما في قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

هذا الغُثاء يحتاج إلى إدراك واقعه أولاً؛ أي أنه أُلعوبة بيد الآخر، فهو ما دام في مجرى النَّهر الجاهلي يتحرك في أُطره وبين شَطَيْهِ فهو مجرد غثاء لا قيمة له، وهذا هو واقع الأحزاب السياسية الإسلامية، وهو واقع المؤسسات الاجتماعية الإسلامية التي تعملُ ضمن خُطة الجاهلية، ومن غير إدراك المريض لمرضه فإنه لن يخرج من غثائيته قط، بل سيُعطيه الماء الفاعل صورة الجلوس فوقه؛ أي إنَّ له شأناً، والأمر ليس كذلك.

يجب على هؤلاء أن يخرجوا من هذا الضُعف الجاهل، وهو ضُعْفٌ مرضيٌّ محبوبٌ عندهم، وهو أشبه بشهوة حكاك صاحب الجرب، إذ يتمتع بهرش جسده

المريض، أو أشبه بخيالات مُتعاطي الحشيش والمُخدرات، وقد استمرأ هؤلاء هذا الضُعف المرضي وهو في ظنهم سيُوصِلُهُمْ للمُراد، بل إنَّ بعضهم يظن أنه قد حصلَ المُراد والمطلوب بجلوسه فوقَ الماء الفاعل، لأنَّ النَّاس اليوم تحكمهم الصور وهي ميزان عقولهم وأحكامهم.

على هذا الغُثاء أن يخرج من التيار الجاهلي الفاعل لِيَبْنِيَ قُوَّتَهُ خارجَ إطاره، ومن خلال مسيرة الصراع، لا كما يظن بعض الحالمين من إمكانية البناء وراء سور يأجوج ومأجوج المُتخيل تحت الأرض لِيُخْرِجُوا جيوشاً جاهزةً تحققُ الضربة السريعة في القضاء على الجاهلية، فهذه أحلامُ قومٍ قد أَتخمت أمعاؤهم طعاماً ثم استلقواْ نِيَّاماً في عين الشَّمس فرأوا أنهار ماءٍ يتقلبون فيها، وما هي إلاَّ أحلام مُتخمين.

ما فائدة فصلِ الإيمان عنِ القُوة في هذا الحديث؟

تقدم أنَّ القوةَ إيمانٌ، وهي جزءٌ منه، لكنَّ هذا الفصلَ في هذا الحديث بين القوة والإيمان هو للتنبيه والتنويه كما تقدم لأَمْرِ المعطوفِ، وهو القوة، وقد تعمقت في التاريخ الإسلامي مبادئ باطلة في النُّزُوعِ نحو الضُّعف، حتى صار الضَّعيف يمدح ما لا يمدح القوي، والناظر على سِمات من يُقال لهم بالأولياء والصالحين والزُّهَّاد في التاريخ التالي للعُصُورِ الأُولى غلبة سِمَّة «الضُّعف»، وهي سِمَّة تُبنى من هؤلاء مِن خِلال الإرادة، أي الكسل والبطالة وترك ما حضَّ عليه الحديث في الكلمة التالية: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»؛ وسبب انتشار هذه السِمة هو الفهم المغلوط للتقوى والصلاح والعبادة، كما خدم هذه الظاهرة اقتران الفجور بالقوَّة في المجتمعات، إذ صار الأقوياء فيهم بُعْدٌ عن شرط الخيرية الأُولى وهو الإيمان والصلاح الذاتي، فعمتْ فيهم مظاهر الفجور والغَلبة بالباطل، والحِيَّل الذهنية لخدمة دُنياهم، وهذا فقهٌ للإيمان، ولا علاقة له ولا ارتباط بينه

وبين القوة، بل إنَّ القُوَّةَ الحقيقية هي في ملك شرف النفس من انطلاقها مع القُدرة على ذلك كقوله ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرعةِ. إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»[1].

ثُمَّ إنَّ هذا الحديث في نصه كلامٌ على واقعِ المُسلم المُتحد والمُتنوع، أي أنه في خِطابه الأول متوجهٌ إلى مجتمعٍ مسلمٍ متعددِ المُستويات في القُوة والضُّعف، فالخيرية متوجهةٌ للقويِّ لا للضعيف، ولليد العُليا لا لليد السُّفلى، وهو دعوةٌ لهذا المجتمع أن يكون الأقوياء فيه همُ الأكثرون، وأنْ ينزع الضُّعفاء إلى تحصيل القوَّة تحت مِظلَّةِ السبق إلى محبة الله ورِضوانه، لا مِن أجل العُلُوِّ بالباطل والتفاخر بالدنيا.

لكن كذلك فيه احترام الضُّعفاء وتقديرهم، وذلك في قوله: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»، لأنَّ تصاعد تعظيم الأقوياء في اتجاهٍ مرضيٍّ يُؤدي إلى احتقار الضُّعفاء وإقصاؤهم، وقد وُجِدَ في بعض الحضارات الإنسانية مَن شَطَّ في هذا الجانب حتى كان الطفل الضعيف حين يُولد يُرمى مِن أعلى الجبل للتخلص منه وقتله، وقد ورثت بعض المجتمعات هذه العقيدة حتى تجد عندهم الاستهزاء بأصحاب البلاء مِن العُمْيَّان والعَرْجَى، وذلك بخلاف البيئة الإسلامية التي تأنفُ أن تُسمي الأعور بهذا بل تقول عن عينه: «عين كريمة» ويقصدون ما أكرم الله صاحبها وأكرمها بالابتلاء، وبذلك لا بدَّ مِن التفريق بين العجز القَدري الغالب وبين العجز الذي ينشأ مِن الكسل والبطالة، كما يُفرق بين العجز الذي يمكن دفعه والعجز الذي لا يمكن دفعه.

---

[1] «صحيح البخاري»: ٦١١٤. «صحيح مسلم»: ٢٦٠٩ .

القوة والعجز والكسل كلها أقدار

وذلك للحديث: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ. حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ. أَوِ الْكَيْسُ وَالْعَجْزُ**»[1]، وفي اعتقاد المسلمين الْمُتابعين للنبي ﷺ أن القدر ليس شيئاً سائقاً قاهراً، بل هو عِلْمُ الله السابق لما سيكون، فالحديث لا يُبرر العجز والكسل، ولا يجعلهما قدراً سائقاً لا قُدرة للمرءِ على دفعهما بالإرادة والقوة، بل هما كما شأن كلِّ الحياة وأقدارها، كالغِنى والفقرِ والعِزَّةِ والذِّلَّةِ، فهذه كلها عوارض تنشأ بمشيئة الإنسان وإرادته، وهي مشيئة لا تكون إلاَّ بمشيئة الله، ولا يجوز لأحدٍ أنْ يحتجَ بالقدر على عجزه وكسله، ولا على معصيته، والاحتجاج بالقدر هو فِعْلُ أهل الضلال كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾** ﴾ [يس: ٤٧]. فهؤلاء المجرمون احتجوا بالقَدر على تركِ الصدقة، مع أنهم يدفعون عن أنفسهم أقدار المرض والفقر بما استطاعوا مِن قوةٍ، لكن لما كان أمر الصدقة خلاف ما يحبون فرفضوه بهذه الحُجة الشيطانية.

الاستسلام للأقدار التي لا يحبها الله تعالى للمَرءِ معصية، لأنَّ في ذلك تركٌ للسبب الذي أمر الله بسلوكه لتحقيق الفِعْلِ المطلوب، فالذلة والهوان لا يقبلهما الله للمؤمنين كما في قوله: ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾** ﴾ [النساء: ١٤١]، ولقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾** ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقوله: ﴿ **وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المنافقون: ٨] وغيرها من الآيات القرآنية، فمن عُرِضَ له قدر الذلة والهوان فلم يدفعه بما قدَّر الله من أسباب الدفع كان آثماً، وكذلك أمر العجز والكسل، فهي أقدارٌ يجب على المرءِ أنْ يدفعها استطاعته وإلاَّ كان آثماً، ويكون حاله حال محتاج الماء وهو قادرٌ على

[1] «صحيح مسلم»: ٦٧٠٢ .

تحصيله فيجلس حتى يقتله العطش أو تذهب عنه قُوته، فهذا لا شكَّ في جهله وضلاله ومعصيته.

D

«احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»

هذه قاعدةٌ نبويَّةٌ شريفةٌ، وفيها قُوَّتان؛ قُوَّةَ الاندفاع نحو المصلحة، وقُوَّةَ عدم الانتباه إلى مُعوِّقات هذا الاندفاع، ولذلك ترجم الشافعي رحمه الله تعالى هذا الحديث ببعض صوره فقال: «رِضى النَّاس غاية لا تُدرك، وليس إلى السلامة منهم سبيلٌ، فعليك بما ينفعك فالزمه»[1]، ذلك بأنَّ الاهتمام بقول النَّاس وتعليقاتهم وما يقولون سببٌ غالبٌ في البشر لمنعهم من تحقيق منافعهم ومصالحهم، فإنَّ البحث والدراسة في شؤون أمرٍ مِن الأُمور ستُوصِلان إلى تحقيق النفع الأكثر والمصلحة الأغلب، وقوله ﷺ: «**احْرِصْ**» دعوةٌ إلى صرف الإرادة نحو المنافع والمصالح دون أعمال اللهو والبطالة، ودون لغو الأعمال التي لا نفع ولا ضرر منها، وفي اللفظ كذلك دعوة إلى الحرص على الوقت وعدم صرفه إلاَّ فيما فيه منفعة دينية أو دنيوية.

فبهذا يُجمع في المرء المؤمن أمران؛ القوة والإرادة العاملة الجازمة، ويجمع فيه الإيمان وهو دافع الطاعات وإرضاء الله وإدراك ما ينفع المرء وتمِّييزه عما يضره، فيتحقق الفِعل المادي والنِّيَّة الصالحة، وبين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة، فيكون المرء فاعلاً عدلاً قائماً في هذه الدنيا على وجه الأمر الإلهي والسَّنني، كما قال تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ**

[1] «سير أعلام النُبلاء»: ٨/٣٧٧. قال الشافعي رحمه الله تعالى ليونس بن عبد الأعلى أبا إسحاق.

مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ [النحل: ٧٦]. لأنَّ هناك الكثير ممن يأمر بالعدل والدين والعبادة لكنه عاجزٌ ضعيفٌ فلا يتحقق بأمر كل الخير، أو يأمر بالعدل على غير طريقٍ سَنني صحيحٍ كما هو شأن الآمرين به في أحزاب سياسية في أنظمة جاهلية لا يتحقق بها العدل، وإنْ تحقق كان مَرده قوة للجاهلية لا لأهل الحقِّ، والطريق النبوي الصحيح أن يقوم المُصلح بالأمر بالعدل ويسلكَ في نفسه وفي دعوته السبيل السَّنني لإيقاع العدل الذي يحبه الله تعالى للمؤمنين.

فالحرص بحثٌ وفكرٌ وإرادةٌ وعزيمةٌ صادقةٌ، واندفاعٌ بلا تلكؤ، ومسيرٌ دون إبطاءٍ نحو الهدف، ومِن غير التفاتٍ على جوانب الطريق.

كما أنَّ فيه الأمر بالعِناية والاحتفاظ لما جُنيت من المنافع، لأنَّ من الجهل والضعف أنَّ تجني الكثير ثم تذهب به في وِدْيَانِ الهلكة التي لا تنفع، أو تتركه للضيَّاع والذهاب.

هذه القاعدة النَّبويَّة الشريفة هي أساس عملِ المُبدعين والمجتهدين والمُنتجين في التاريخ الإنساني كله، إذ لو تفكرتَ في صفات أُولئك النَّاس الذين أحدثوا آثاراً في الوجود الإنساني، لوجدتَ قاسماً مُشتركاً، وهو قصر النفس على الجِد وترك اللهو والكسل والبطالة، ووضعِ الهمة في بابٍ من أبوابِ العِلْمِ والعَمَلِ دون التفاتٍ للمُعوقات التي تحيط بهم، إذ تجد اختلاطهم في لهو النَّاس ولغوِ حياتهم يكاد يكون معدوماً، فليس لهم إلاَّ قصر حياتهم على تحصيل النفع لأنفسهم.

هذا الشعار النَّبوي تُرْجِمَ عَمَلِياً بواقعٍ نبويٍّ عظيمٍ، وتُرْجِمَ عَمَلِياً بواقعِ الصحابة ومَن وَرِث طريقتهم مِن العلماء والعُبَّاد والمجاهدين والأُمراء، ولتفصيل واقعِ النفع الحقيقي على وجهٍ صحيحٍ لا بدَّ مِن قِراءة واقع الحياة النَّبويَّة والأصحاب حتى يَفْهَمَ المُسلم ما هو أعظم ما يجب الحِرص عليه في هذه الحياة.

حِرْصُ المرءِ المؤمن على ما ينفعه يُوجِبُ عليه أن يعلم مراتب الأعمال الشرعية من قول الحبيب المصطفى ﷺ، فإنَّ الوقتَ لا يتسعُ للكثير مِن الأعمال، فالعاقل مَن يسلك سبيل الأعمال التي فيها الأجر والأثر أكثر من غيرها، وهذا في كثيرٍ مِن الأبواب، فالأبواب الدينية لا يُعرف إلاَّ مِن جهة المعصُومِ ﷺ، وأما ما كان من أُمورٍ دُنيوية فإنما يُعْلَمُ بالفكر والتجربة والمُراقبة، وبهذا يكون الحريص جامعاً للعِلْمِ الموروث والنظر والفِكر فيما يقع في الحياة.

ثُمَّ إنَّ في هذا الهَديِّ النَّبويِّ دفعاً لمعالي الأُمور في هذه الحياة، بل وكذلك في الآخرة لقوله ﷺ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ**»[1]، وهذا في قوله تعالى: ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾**﴾ [المطففين: ٢٦].

بالجملة فهذه الموعظة تدخل في كلِّ أبواب الحياة العِلمية والعَملية، وتدخل في صُحبة الإخوان وتمِّيز الصالحين والعلماء والأتقياء عن غيرهم، وتدخل في أبواب صحة البدن والعافية، وفي النظر والقول والعمل، فما مِن لحظةٍ من لحظات المُؤمن إلاَّ وهو محتاجٌ أنْ يحرصَ فيها على ما ينفعه، وما مِن عَمَلٍ إلاَّ وهو محتاجٌ إلى التفكر فيه على وجهٍ يحقق له المنفعة القُصوى.

لكنَّ هذا الهدي لا يصلح دليلاً لأهلِ الحرص على الدنيا الذين يمنعون الخير عنِ النَّاس، ولا الذين يصرِفون أوقاتهم في سبيلها دون اعتناءٍ بأمرِ الآخرة، ومَن تفكرَ في أمرِ الآخرة وأمرِ الدنيا عَلِمَ أنَّ أعقلَ النَّاس همُ المُنفقون والزُّهَّاد، والعُبَّاد والعلماء فإنَّ هؤلاء هم مَن صرفوا أوقاتهم في خير الأعمال وأزكاها وأكثرها أثراً وأجراً، ولذلك ففي «صحيح مسلم»[2] عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ**». وهذا

---

[1] «صحيح البخاري»: ٢٧٩٠، ٧٤٢٣.
[2] «صحيح مسلم»: ٢٣٦٥.

حرصٌ غير ممدوحٍ، فعند أبي داود[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ**»، فالحرص على المال يُؤدي للشح، والحرصُ على العمر يُؤدي للجُبن، ولذلك قالوا: «شِدَّةُ الحِرْصِ مِنْ سُبُلِ المُتَآلِفِ». فهذا حِرصٌ مذمومٌ لا يُمدح صاحبه وليس هو المقصود بالهديِّ النبويِّ، بل عدَّ الحسن البصري الحرصَ على الدنيا أصلٌ من أُصول الشرِّ فقال: «أُصول الشرِّ ثلاثةٌ: الحرص والحسد والكبر، فالكبر مَنَعَ إبليس من السجود لآدم، والحرصُ أخرج آدم من الجنَّة، والحسدُ حمل آدم على قتل أخيه»[2].

D

«وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ»

كان شرطَ الفِعْلِ أولاً حصول القوة، إذ بغير قوةٍ لا كون للفِعل في عالم السُّنن الأرضية، ثمَّ بالعلم في المطلوب والتنقيب عنِ الأصلح والأنفع، وهذا يُوجب العلم بمسالك الحياة وسُبلها وسُننها، ثمَّ جاء الأمر النَّبوي بتنشيط هذه الإرادة ودفعها للاندفاع بقوةٍ نحو الهدف بعد ذلك في قوله: «**وَاسْتَعِنْ بِاللهِ. وَلاَ تَعْجِزْ**»، وهاتان نصيحتان جليلتان هما: الاستعانة بالله، وهي لا تكون للقاعد ولا للكسول، ولا لتارك سبيل الفِعْلِ، بل إنما تكون الاستعانة بالله للمرء الذي هو على جادة الفِعْلِ، فالمرء وهو ساعٍ إلى طلب الرزق جُهده يسأل الله تعالى أن يُيسر له أمره، فهذا موسى عليه السلام يسأل الله وهو في الفِعْلِ قائلاً ربُّنا عنه: ﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾**﴾ [القصص: ٢٢]. فقد سأل الله هداية السبيل بعد أن توجه ومشى، وهو كذلك فعل المؤمنين مع طالوت، كما

---

[1] «سنن أبي داود»: ٢٥١٢.

[2] ذكره ابن عبد البر القُرطبي في «بهجة المجالس وأُنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس».

قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾** ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، فهؤلاء المؤمنون نصبوا أقدامهم ووقفوا في الصف تجاه أعدائهم، ثمَّ وهُمْ على هذه الحال سألوا الله تعالى الثَّبات والنَّصر، ولذلك مِن التَعَدِّي في الدُّعاء والجهل بسنن الله في الخَلق أن يسألَ المرء ربَّه وهو قاعدٌ، أو سالكٌ غير السبيل المُوصِل لطلبه، كما هو شأن عامة المسلمين اليوم، إذا تراهم في المساجد والجُمُعات والمواقف يُلِحُّونَ في الدُّعاء بالنَّصر وهزيمة الأعداء، وهم في حياتهم لا يعملون لهذا، لا خطيبهم ولا مُستمعهم، بل تراهم على الضدِّ مِن السُّبلِ المُوصِلَة للنَّصر وهزيمة الأعداء، وكذا سؤالهم الله تعالى الإمام العادل، فإنَّ أغلبهم وأكثرهم لا يعمل لهذا الباب ولا لوجوده، وهذا كله تعدٍ في الدعاء، ثم يكون القُبح والجهل السؤال بعد ذلك: لماذا لم يستجبِ الله دعاءنا؟، وهم بهذا يتهمون الربَّ لا أنفسهم، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾** ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فلا بدَّ من الاستجابة لله في أمره قبل أن يستجيبَ الله طلبكَ.

وقوله: «**اسْتَعِنْ بِاللهِ**»، أي انهضْ وتحركْ وقُمْ، وحَرِكْ قَدَمَيْكَ إلى هدفكَ.

وأما الأمر الآخر فهو قوله: «**وَلاَ تَعْجَزْ**» ذلك لأنَّ أكثر النَّاس لعدم فهمهم لهذه الحياة وجهلهم بسنن الواقع يتركون الفعل للكسل في واقعِ الأمر، ولكنهم لإبعادِ شبهة التهمة عن إرادتهم وقلوبهم فإنهم يذهبون إلى اتهام الواقع فيتركون الفعل ويزعمون أنَّ سبب الترك هو العجز، والحق أنَّ تركهم للفعل سببه الكسل.

وقد تقدم أنَّ العجز غِياب القوة، وقد تُوجد الإرادة وقد تغيب، لكن الكسل جزماً هو غِياب الإرادة، كما عُلِمَ أنَّ عجز اليوم منشؤه في الأُمم هو كسل الأمس، فحيث غابتِ الإرادة أولاً، وتراكم هذا الكسل والبطالة فورث الأبناء هذا الكسل عجزاً مُرهقاً وضُعفاً وغياب قوة.

ففي الحديث دفعٌ للمرء أن يقوم إلى الفِعل، وهو في كلِّ أحواله يملك القوة لبدايته، والبدايات تحتاجُ إلى قوةٍ أقل من الأثناء والانتهاء، فمَن طلبَ مِن الطفل أن يدرس الطبَّ يكون جاهلاً غبياً، لكن لو قِيل لجاهلٍ كذلك هذا الطفل هو طبيبٌ لما صدق، لأنه لا يرى في هذه الكلمات الأُولى التي يُعلمها الآباء لأبنائهم من الحروف الأُولى هي اللبنات الأُولى حتى يكون هذا الطفل طبيباً.

ولذلك فإنَّ قوله ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجَزْ**» هي في واقعها طريقٌ لتحصيل القوة ودخول طبقة الأحب إلى الله تعالى والخيرية، ذلك بأنَّ الضعيف العاجز مهما كان ضعيفاً فإنَّ عليه أن يبصر هدفه ويحدده، وعليه أن لا يلتفتَ للمُعوقات، ثم عليه أن يضعَ قدمه في أول الطريق مُستعيناً بالله تعالى دون تثبيط أنه عاجز غير قوي على تحصيل هذا الأمر العظيم.

هكذا في هذا الحديث إرشادٌ نبويٌّ لا يُوجد في أيِّ دينٍ من الأديان مثيلاً له، بل إنَّ كلَّ مذاهب القوة في التاريخ كالرواد شتيتة وغيرها من المذاهب الداعية إلى صنع الإنسان الخارق كما يُسمونه لا يمكن أن تصل إلى دفع الإنسان الضعيف إلى معالي الأُمور وأعلاها بمثل ما يحقق هذا الحديث العظيم.

قوله: «**لاَ تَعْجَزْ**» إبعادٌ لقيمةِ القوة الكبيرة في البدايات، فالحديث في البداية يتكلم عن «**الْمُؤْمِن الْقَوِي**»، ولكنه يقول كذلك أنَّ هذا الضعيف قادرٌ أن يبلغَ إلى مُراده، وذلك بشرطٍ واحدٍ أن يضعَ قدمه في البدايات، فإنْ حصل هذا فإنَّ القوة عَرَضٌ وصناعةٌ وقدرٌ مُكتسبٌ، ولذلك هي ستأتي من خلال سَعْيكَ وفِعلكَ وإرادتكَ.

«**لاَ تَعْجَزْ**» دفعٌ لشرط القوة التي يشترطها الجهلة والأغبياء في البدايات، إذ أنهم لكسلهم وجهلهم وبطالتهم لا يَشْرَعُونَ في فِعْلٍ مِن الأفعالِ حتى يستكملوا القوة اللازمة في النهايات، أو ما يجمع من قوة خلال مسيرة الطريق كلها، وهذا لا يصلح لكلِّ أحدٍ بل لا يصلح للأغلب.

إنَّ مَن كان وارثاً لكسلٍ طويلٍ صار عجزاً، ويُقابله غيره الذي هو عدوه سالكاً للفِعال حتى بلغَ تمام بِنائه، لا يجوز له أن يشترط قوة هذا المُقابل حتى يُنافسه ويُدافعه، ولو اشترطَ هذا الشرط لكانَ أجهل النَّاس وأبعد النَّاس عنِ الهَدي السَّنني الرشيد، ولو تفكرَ هو في بناء هذا المُقابل كيف صار لَعَلِمَ أنَّ عامل الزمن شرطٌ لتحصيل هذا البناء.

يقول لك الحديث: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**» أي اطلُبْ ما تريد من المصالح والمراتب، وإيَّاكَ أنْ تطلبَ الدنايا مِن الأُمور، بل اطلبْ أعلاها، ثمَّ إيَّاكَ أنْ تلتفتَ لعجزكَ وضُعفكَ، بل انظرْ إلى ما معك من قوةٍ مهما كانت يسيرة، فضَعْ على هذه القوة اليسيرة القليلة الدعاء واطلبِ المعونة واسلكْ بها سُبل الوصول لما طلبتَ من هذه المعالي.

D

بقيَ خوفٌ آخرٌ يعوِّق هذه الإرادة أن تنطلق في مثل هذه الظروف، وهو معوِّقٌ يُصيب حتى أصحاب القِوى الكبيرة ألاَّ وهو الخوف من العواقب فجاء قوله ﷺ: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا لَمْ يُصِبْنِي كَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ. وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

فهذه تجربةٌ مضتْ، تعلمتَ منها، واقتبستَ منها معرفةً وتجربةً وخِبرةً، فلا تقفْ عندها تبكي عليها وتُوَلْوِلْ، بل امضِ إلى غيرها بنفس البناء النفسي من الاندفاع الذي كان في الأُولى، مع مزيدِ عِلْمٍ وخِبرةٍ وتجربةٍ.

وهذا الحديث ليس فيه قطٌ النهي عن مُناقشة التجارب السابقة والنظر في أسباب إخفاقها وضُعفها، بل هو نهيٌّ عنِ الرجم بالغيب في أُمورٍ لم تقعْ كيف

ستكون لو وقعت، ذلك لأنَّ كلَّ فِعْلٍ له ظرفٌ يحيطُ به، والظرفُ قد يكون من فِعلكَ وصِناعتكَ، وقد يكون مِن فِعْلِ غيركَ وصناعته وهو الأغلب، والفعل الإنساني لا يكون أبداً في فضاءٍ خالٍ مِن الأغبار والأقدار، ومثالُ ذلك سائق السيارة، فإنه مهما كان مُتقناً في سِياقته لا يمنع هذا الإتقان حصول قدر الحوادث عليه بأفعال غيره من أصحاب المراكبِ الأُخرى، فالتاجر مهما كان ذكياً مُتقناً قد ينتهي إلى الإفلاس بفعل غيره مما يقع في عالم الاقتصاد، بل وعالم السياسة التي ترتد على أموال النَّاس بالتنمية أو الهلكة، ولذلك إخفاق المرءِ بسبب ظرفٍ لم يتوقعه أو عارضٍ مفاجئٍ لا يعني أنه قَصَّرَ في الفِعل، بل ربما لو سلكَ طريقاً آخر غير ما أتاه مما أدى إلى إصابته سيُصاحبه قدرٌ آخرٌ يُؤدي إلى نفس النتيجة من المصيبة.

D

«قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»

إنما تجري على قاعدة الشرع المعلومة في الدين، وهو أنَّ المُسيءَ يُعاقب ولا يسقط عنه العِقاب بحجة القَدر، وأنَّ سالكَ طريق الخسارة سيخسر، ولا يجوز له أن يحتج بالقَدر على خسارته، لكن هذه القاعدة: «**قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**» تُعْمَلُ في أمورٍ جاء بها الشرع منها:-

ما لا يمكن للمرءِ دفعه مِن أقدارٍ تغلبه فوقَ طاقته، فقد احتج بالقَدر رسول الله ﷺ عندما نام هو وأصحابه عن صلاة الفجر في الغزو، وهذا بعد أنْ أعْمَلَ الأمور السَّننية المطلوبة، فقد عيَّن بلال رضي الله عنه ليحرسهم ويُوقِظهم لصلاة الفجر، فلما نام بلال فلم يستيقظوا إلاَّ بحر الشمس قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَبَضَ**

أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا حِينَ شَاءَ»[1]، فقد أراحَ الرسول ﷺ قلوب أصحابه بهذا الحقِّ حتى لا يقع العِتاب أو التلاءم بينهم في هذا، فمن سدَّد وقارب وسعى سعيه لتحقيق الفعل ثمَّ فاته لأمرٍ قهره لم يستطعْ له دفعاً فهذا يُقال له: «**قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**» على وجه رفع الملامة عنه مِن قِبل النَّاس ومِن قِبل نفسه على نفسه، هذا مع أن كلمة: «**قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**» هي حقٌّ في عمومها، فإنَّ كلَّ شيءٍ بقدرٍ، ولا يكون إلاَّ ما شاء الله سواء كان مما يحب الله أو مما يكره، ولكن أن تُقال هذه الكلمة على وجه الإعذار فإنَّ لذلك بعض الوجوه لا كلها.

وهي تُقال على هذا المعنى - أي رفع الملام وإعذار المُخطئ - في الآثار المُترتبة على الفِعل، فإنَّ المرءَ مسؤولٌ عنِ الفِعل المُباشر له، وقد يقع بهذا الفِعل آثارٌ كونيةٌ لا ترتبط بالفِعل من جِهة الشرع، وليست هي كذلك من لوازم آثار هذا الفِعل قدراً، بل وقعت في بيئةٍ ساعدت على هذه الآثار فحينها لا يُلام المرء ولا يُثرب عليه، بل يُرفع عنه الملام في ذلك ويشهد لهذا حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ. قَالَ لَهُ آدَمُ يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلاَمِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً. فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**» ثَلاَثًا.[2].

والذي عليه أكثر أهل العلم في تفسير هذا الحديث ومنهم ابن حزم وابن تيمية وغيرهما أنَّ الخُصومةَ وقعتْ بينهما على أثر المعصية، لا على المعصية ذاتها، فإنَّ موسى لام أباهُ على الخروج مِن الجنَّة، وهو أثرُ المعصية لا ذات المعصية، فآدم عليه السلام استغفرَ ربَّه منها، كما قال تعالى: ﴿**فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ**

---

[1] «صحيح البخاري»: ٥٨٨، ٧٤٧١.

[2] «صحيح البخاري»: ٦٦١٤. أطرافه: ٣٤٠٩، ٤٧٣٦، ٤٧٣٨، ٧٥١٥. «صحيح مسلم»: ٦٦٩٣، ٦٦٩٥، ٦٦٩٦.

عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧]. وهي قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وهذا يُبَيِّن أنَّ المؤمن لا ينبغي أن يَعِيبَ على مخالفه إنْ كان في فِعله أثرٌ عليه، بشرط أنْ لا يكون هذا الأثر مربوطٌ مِن جِهة الشرع مع الفِعل، أو لا يكون أثراً مُلازماً للفِعل على وجه السُّنن وجَرَيَانِها، فإنْ كان الأمر كذلك فإنَّ إجراء اللوم والعِتاب على فاعِلِ الطاعة إنْ حصل له بسببها بلاءٌ أو حصلَ لغيره هو أفسد وأضل وأبعد عنِ الدين والإيمان، ومثال ذلك ما لو اشترك اثنان في طريقٍ فرأى أحدهما معصية فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فجاش النَّاس ضدَّهما كأن يُقتلاَ أو يُسجنا أو يُطردَا، فلا يجوز للمُصاب الساكت أن يَعِيبَ على القائل بالحقِّ بحجة لحوقِ آثار بلاءٍ عليه، وعدم فقه هذه القاعدة في المُعاصرين جرَّهم إلى كلام ضلال يقولونه ضدَّ القائمين بالحقِّ من المؤمنين والمجاهدين، فهذا رسول الله ﷺ جرَّ بلاءً عظيماً في الحصار في الشِعب على بني عبد المطلب مُسلمهم وكافرهم حين دعا قريش إلى الله تعالى، وكان من عقل الكفار فيهم ما منعهم من أن يقولوا ما يقوله المسلمون اليوم في المجاهدين والداعين إلى الله الصادعين بكلمة الحق.

ومِن الأحوال التي تُقال فيها هذه الكلمة: «**قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**» في تربية المُبتدئين والمُتعلمين حين يأتون من الأمور على غير وجهها التي يحبها المُتقنون منهم، ويشهد لهذا حديث أنس رضي الله عنه في تربية رسول الله ﷺ، فقد قال أنس رضي الله عنه: «**خدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ بالمَدِينَةِ وَأَنَا غُلامٌ لَيسَ كُلّ أَمْرِي كَمَا يَشْتَهِي صَاحِبِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مَا قَالَ لِي فِيهَا أُفٍ قَطّ، وَمَا قَالَ لِي لِمَ فَعَلْتَ هَذَا، أَمْ أَلاَّ فَعَلْتَ هَذَا**»[1]، فإنَّ المرءَ المُبتدئ يحتمل منه أن يأتي بأمورٍ على غير الجادة والإتقان، وكذلك الصغير، فإنْ وقعَ منه ما قاله أنس رضي الله عنه: «**لَيْسَ كُلّ**

[1] «سنن أبي داود»: ٤٧٧٠ .

أَمْرِي كَمَا يَشْتَهِي صَاحِبِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ» فإنه لا يُثْربُ عليه ولا يُلاَم، بل يصبر عليه ويُسدد ويُعلم.

ثمَّ إنَّ مع رفع العِتاب النَّبوي عنِ النَّوم الذي وقع لهم في الغزو كما تقدم، فإنه ﷺ أنكر على عليٍّ رضي الله عنه احتجاجه بهذا في باب ما يقدر المرء أن يأتيه، ففي الحديث عن الحسين عن أبيه رضي الله عنهما: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ طرَقَهُ وفاطمةَ بنتَ النبيِّ عليهِ السلامُ ليلةً فقال: «**أَلاَّ تُصَلِّيَانِ؟**». فقلتُ: يا رسولَ اللهِ أنفُسنا بيدِ اللهِ، فإذا شاءَ أن يَبْعَثنا بَعَثَنا. فانصرَف حينَ قلتُ ذلك ولم يَرجِعْ إليَّ شيئاً، ثمَّ سمعتُهُ وهوَ مُوَلٍّ يضرِبُ فخذَهُ، وهوَ يقول: ﴿ **وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾** ﴾ [الكهف: ٥٤]»[1].

وقول علي رضي الله عنه هو عين قوله ﷺ في الحادثة المُتقدمة، لكن الاختلاف في الحال، فإنَّ النَّوم الذي وقع على الصحابة يومها كان قاهراً لا يستطيعون له دفعاً، بخلاف حال علي رضي الله عنه، وكذلك مما يفترق عنه أنَّ النبي ﷺ أراد منهما ـ علي وفاطمة رضي الله عنهما ـ القِيام لحظة حضه لهما بقوله: «**أَلاَّ تُصَلِّيَانِ؟**»، فعلَّق عليٌّ رضي الله عنه صلاته على القَدر، ومثل هذا يقع ممن يُقال له: «افعلْ طاعة». فبدل أن يُبادر إليها ويصرف هِمته تجاهها يجلس ويُعلِّق فِعلها على القَدر قائلاً: «إنْ قدَّر الله ستكون» وهذا يفعله الكثيرون، وهذا مما يُعاب عليهم ويُثرب على قائليها على هذا الوجه وهذه الحال.

قوله ﷺ: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ**» دعوةٌ نبويَّةٌ، وإرشادٌ عظيمٌ إلى عدم الخوف من النتائجِ بعد أن تأتي الأمور على وجهها الصحيح، فأنتَ حين حرصتَ على ما ينفعكَ، وسددتَ له كل ما تقدر مِن العِلْمِ والقُوة والعمل فلا تخافِ العَيْبَ والتثريب إنْ وقعَ خِلافَ مصلحتك، بل ما كان إنما هو بقدر الله تعالى، ومن

[1] «صحيح البخاري»: ١١١٠.

الإيمان بالله تعالى والخضوع لعبوديته هو الصبر على القدر، ومن مُستحبات أعمال الإيمان القبول به، ذلك بأنَّ الصبر واجبٌ وأما الرضى بالقدر فمستحبٌ على الصحيح في أقوال أهل العلم.

يكون الخوف من النتائجِ عند الكثيرين سبباً يمنع إقدامهم فيُحرمهم من التقدم وتحقيق المصالح، وخاصةً حين تسبقُ الإنسان تجارب لم تحققِ النتيجة، فلو استكانَ النَّاس لهذا الأمر لما كان في الحياة الكثير من العمل النافع، ففي باب الدعوة كانت تجارب كثيرة لم تحقق لأصحابها النتائج الدنيوية من هِداية المدْعُوِينَ واستجابتهم، بل ربما قُتل هؤلاء الدُّعاة كما وقع لصاحب ياسين كما في سورة «يس»، فلو وقعَ اليأس بسبب هذه التجارب في قلوب الدُّعاة لما تحركَ منهم أحدٌ بعد ذلك، ولما كان في الأرض هِداية، ولذلك كان من تعليم الله تعالى لنبينا محمد ﷺ في أمرِ الخِضر وموسى عليهما السلام هو عدم النظر إلى الظواهر فقط، فإنَّ النبي ﷺ نزلت عليه هذه الآيات في مكة وهو يُعاني صُدُودَ وإعْرَاضَ قريش، وهي سنين طويلة كافية عند البعض أن يترك الدعوة، لكن هذا الأمر هو أمر الله، وقد هُدِّد الدُّعاة إنْ سلكوا هذا الأمر فتركوا الدعوة بما وقع ليونس عليه السلام، فجاءت آيات سورة «الكهف» في شأن موسى والخِضر عليهما السلام لتُعلم النبي ﷺ وأُمته أنَّ الحياة لا تقوم على الظواهر فقط في باب الهداية والنَّصر والتأييد، فكان ما كان من أمر الخِضر الذي علمه الله النتائج على خِلاف ما يُبصره المُصاحب له، والأمر أشبه بما أمر الله تعالى خليله إبراهيم بالأذان في الأرض الخالية في قوله تعالى: ﴿ **وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا** ﴾ [الحج: ٢٧]. فاستجابَ الخليل لأمر الله تعالى ولم ينظر إلى النَّاس، أو إلى ظاهر الأمر، فكان ما كان من استجابة الملايين من أُمَّة محمد ﷺ لهذا النِداء العظيم.

وهكذا وقع لرسول الله ﷺ في مكة، حين دعا إلى الله فيها ثلاثة عشر عاماً فلم يستجِبْ له ما يصل المائة، ولكن كانت آثار هذه السنين بركةً وخيراً على أهل

المدينة التي تنورتْ بقدوم الحبيب إليها، وهذا قد يقع للدَّاعي حيث يمكث سنين وهو لا يجد مُستجيباً ثمَّ يأتي الخير ويبدأ الدفق الإيماني العجيب في النَّاس، ولذلك كان من قوله ﷺ لملك الجبال وقد استأذنه أن يطبق الأَخْشَبَيْنِ ـ أي الجَبلين ـ على أهل مكة: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[1].

وهذا الذي يُقال في الدعوة يُقال في الجهاد، فإنَّ الجهاد في بدايته حين يَشرع به أهله يكون فيه البلاء والشِدَّة، ويكون الفقر والقتل، ثم يكون الخير العظيم كما وقع للصحابة رضي الله عنهم، فإنَّ البلاء الذي وقع على المدينة بالجهاد هو من أشدِّ ما يقع على القُرى ثمَّ لما بدأتِ الفتوح والغنائم عمَّ الخير كلَّ المسلمين، وكان أكثر النَّاس أخذاً لها همُ التالين في الإسلام والجهاد لا السابقين.

ولذلك قد يقوم أهل بلدٍ بالجهاد فيلحقها الخراب والهجرة والقتل، لكن كل هذا هو وَقُودُ الخير القادم الذي ينتظرها إنْ صبرت وثابرت، فالظواهر مع هذا الدين لا تصلح في البدايات إنما النظر دائماً إلى العواقب.

ثمَّ في باب الجهاد يعظ هذا الحديث النَّبوي أُولئك الذين يريدون تعطيل الجهاد بحجة التجارب السابقة التي أخفقت فآل أمرهم إلى التبديل والتغيِّير، ولو اهتدى هؤلاء بنور هذا الحديث لما غيَّروا وبدَّلُوا بل لَكان عليهم أن يُعيدوا الأمر كرةً بعد كرةٍ حتَّى يتحقق لهمُ المُراد أو يهلكون دونه، فإنْ هلكوا هم دونه جاء من وراءهم مَن ورث الطريق حتى يتحقق المُراد، لأنَّ هذا هو شأن الأُمم الحيَّة، وهي الأُمم التي لا يقعر لها بالعصا أي إنها لا تستكين ولا تجبن بمجرد أن يقع الإخفاق في تجربةٍ واحدةٍ، أو تتراجع بمجرد التهديد والتخويف.

---

[1] «صحيح البخاري»: ٣١٦١. «صحيح مسلم»: ٤٦٠٨ .

إن قوله ﷺ ونهيه عن قول الفاعل: «**لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا**» دليلٌ على أنَّ عيب السبب المُوصِل إلى الهدف غير سديدٍ، فإنَّ الماء في سُنة الله تعالى هو ما يدفعُ العطش، لكن إن شربَ أحدهم الماء فغص فمات لا يعني أن نبحث عن سببٍ آخرٍ لدفع العطش، وهذا يُقال في الجهاد وقِتال الطواغيت، فإنَّ المجاهد إنْ أصابه شيءٌ لا يجلس ليقول: «**لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا**» أي أتيتُ فِعْلاً آخر غير الجهاد، بل يعود مرةً بعد مرةٍ في نفس السبيل حتى يتحققَ المُراد، وفي كلِّ مرةٍ يُسدد ويُقارب ويُصلح من هذا السبيل ما يقدر عليه على أساس القاعدة النَّبويَّة: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»، وقاعدة: «**اسْتَعِنْ بِاللهِ**»، وقاعدة: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**».

إنَّ مِن عِلْمِ الشيطان وجُنده أنَّ التجارب الفاشلة تقضي على الإرادات، وتُورِثُ اليأس، وتصنعُ الخُصومات بين الفاعلين فإنهم يعمدون في حالاتٍ متعددةٍ إلى صُنع هذه التجارب بأيديهم حتى يكون الأثر المطلوب، فبالفشل المصنوع يتم القضاء على الإرادات في نفوس الصادقين، ولذلك فإنَّ هذا الحديث يُنيرُ للمهتدين هذا الأمر فهم يُعيدون الكَرَّةَ مرةً بعد مرةٍ حتى يتم المُراد ويقضي الله بين الطائفتين.

D

«فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»

قاعدة العاملين في هذه الحياة أنَّ النَّصر له آباءٌ كثيرون، وأنَّ الهزيمة لا أبَّ لها، ففي التجاربِ الناجحة يتنازع النَّاس النَّصر، فكل واحدٍ منهم ينسبه لنفسه ويدَّعِيه، لكن إنْ وقع الإخفاق تبرأ الكل منه، وفي هذا التبرؤ رميٌّ بالخطأ إلى جهةِ الآخر، وبهذا تنشأ الخُصومات ويتحقق مُراد الشيطان في العاملين، ومن قرأَ

حياة النَّاس وتجاربهم عَلِمَ أنَّ اليأس لا يقع إلاَّ بسبب هذه الكلمة: «**لَوْ**» إذ فيها اللَّوم والتقريع المُحبط، وفيها التحسر الذي يحطم الإرادة من أن تنزع مرةً أُخرى للفعل، كما أنَّ فيها الاتهام المُسيء للنفس والآخرين، هذا مع نهي النبي ﷺ أن يقول المرء: «**خَبُثَتْ نَفْسِي**»[1]. لأنَّ في هذا تدميرٌ للإرادة النازعةِ للفِعْلِ، فإنَّ الثِّقة بالنَّفس على معنىً إيماني كما في هذا الحديث: «**اسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجَزْ**» شرطٌ ضروريٌّ لتحريكِ الإرادة للفِعل، ولذلك فإنَّ انتشار ثقافة سبِّ النفس وتحقيرها وتهوين شأنها ليس من الإسلام في شيءٍ، ويجب التفريقَ بين هذه الثقافة الباطلة التي انتشرت بسبب دين الصوفية وبين غَمْطِ النفس واتهامها بالتقصير، فإنَّ المؤمن يَغْمطُ نفسه ويتهمها بالتقصير لظنِّه أنه لم يأتِ بالفِعل الإيماني على وجهٍ يتناسب مع قُوته وقُدرته، أما ثقافة سبِّ النفس وتحقيرها وتهوين قوتها وعِلْمِهَا فإنها على الضدِّ من ذلك كما هو بيِّنٌ، لكن اختلاط الأمر بينهما هو ما جعلَ دين اليأس وتحقير الذات، ومن ذلك تحقير المسلمين يسير في البيئات المُسلمة أكثر من غيرها تحت ستار الدين وزعم التواضع، فما أن ينزع أحدهم إلى معالي الأُمور في أيِّ بابٍ من أبواب الدين أو الدنيا حتى تجد سِيَّاط الجلد والسبِّ والاستهزاء تتناوشه من كلِّ جانبٍ، حتى صار من الدين المُستقر في نفوس النَّاس أننا لا نقدر أن نُقارع الكِبار!! ـ كما يُسمونهم ـ أو أننا لا يمكن لنا أن نبلغَ في البناء ما بلغوا، أما تحقير المُعاصرين لطلبة العِلم في باب اللحوق بالأوائل فحدِّثُ عنه ولا حرج، ولذلك صار التاريخ أُسطورة في أذهان هؤلاء لا يمكن تحقيقه، وكذلك الوُصول إلى ما وصل إليه الأغيار حُلْمٌ خياليٌّ لا يُفكر فيه عند هؤلاء إلاَّ مَن هو مجنونٌ مخبولٌ، وبهذا اجتمعت حلقتَا البُطلان في تدمير الإرادة المُسلمة؛ **أولاهما**: أنَّ التاريخ لن يتكرر. **وثانيهما**: أنَّ الحاضر لن يتغيَّر، فالمسلم بين

[1] «صحيح مسلم»: ٥٨٣٠، ٥٨٣٢.

تاريخ أُسطوري لن تلغ شأنه، وبين واقعٍ بعيدٍ لن تلحق شأوه، وهذا هو مُراد الشيطان.

إنَّ «**لَوْ**» في مراتٍ كثيرةٍ وهي الأغلب هي محاسبة لما لا تقدر عليه، فحين لا تنتبه إلى أن الإخفاق لا علاقة له بالشخص ولا باختياره لكن له دورٌ لمستوى ضُعف القوة أمام المانع، أو لدخول فاعلٍ غير محسوبٍ في الحدث يكون في «**لَوْ**» هذه فتحٌ لبابِ الشيطان في بثِّ اليأس في نفس العامل، أو بثِّ الخُصومة بين نفوس العاملين المُشتركِين في الفِعل.

إننا نجد كثيراً من التجارب التي وقع فيها قوله ﷺ: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ**» أي على غير مُرادك. فجَلَسَ العاملون ليفتحوا ملف «**لو**» وهو ملفٌ كبيرٌ تحت باب المحاسبة والمُسائلة ـ زعموا ـ صار بهمُ الأمر إلى الخُصومة، ولذلك من بابِ حُسْنِ الإدارة التي يُعلم الكبار فيها أن لا يُعلِّقُوا على كلام غيرهم حين يأتون بآرائهم، ولا يذمون تجارب آخرهم حين يبنون ما يريدون، لأنه لو وقع هذا لَوقعتِ الخُصومة حَتْماً، ولكن من حُسن الإدارة أن تأتي بقولكِ ورأيكِ دون أن تعلِّقه على قولِ وفِعْلِ الآخر، وهذا مما يُؤسف له لا نجده قط في العالم الإسلامي ولا في العمل الإسلامي، وكأنَّ ما نراه من أعمالِ تنظيماتٍ وأفرادٍ هي ردود فِعْلٍ فقط على أفعال الآخر، أو هي ردود فعلٍ من أشخاص على أنفسهم أمام تجارب سابقة، لم تدفعهم للعودة والمُثابرة لكنها كسرتهم وأركستهم عنِ المسير مرةً أُخرى.

في «**لَوْ**» عند بعضهم فتحٌ لباب تغيِّير السُنن، إذ أنَّ الأهداف البشرية الكُبرى والمعلومة لها سُننٌ معلومةٌ لا يخطئها الإنسان الفِطري السوي، فمَنْ أراد المال فإنَّ له سُبُلاً معلومةً من تجارةٍ وصناعةٍ ورحلةٍ وغير ذلك، ومَن أراد العِلم فإنَّ له سُبُلاً معلومةً مشهورةً، ومَن أراد شدَّ رمقِ الجوع فإنَّ له سُنناً معلومةً، وهكذا، وقد تخفقُ تجربة ما لِقِلَّةِ القوة المُكافئة للفِعْلِ أو لِدَفْعِ المانع، وقد يطرأ عاملٌ

قدريٌّ غير محسوبٍ كما يقع في سُنن الحياة وجَريانها إذ لا يعلم الغيب إلاَّ الله، وهذه التجربة لا يجوز أنْ تُتَخذ حجة لتغيِّير السُّنَّة الفِطرية، بل تبقى السنن هي الجارية التي يسير النَّاس عليها، لكن قومنا في هذا الزمان لهم في ذلك رأيٌّ آخرٌ، فإنَّ بعضهم ما أنْ تخفق تجربته حتى تفتح «**لَوْ**» فهمها من قوله داعياً إلى سنن جديدةٍ لتحصيل المُراد، وهم يزعمون في هذا أنهم أهل تجديدٍ وإبداعٍ، وأعظم ما وقع في هذا الباب هو باب الجهاد، فإنَّ البشر كلهم على اتفاقٍ فطريٍّ أنَّ القتال والمُدافعة والمُنازعة هي التي ترفع الأُمة مِن الذلة إلى العِزَّة حين تكون الذلة بقهرِ طاغوتٍ أو محتلٍ، وهو أمرٌ لا خلافَ فيه في عالَم البشر الأسوياء، لكن بعضهم يدعوك للصبر حتى يموت الطاغوت أو المحتل، وبعضهم يريد منك أن تأخذ بشطر الموعظة النبوية وهي: «**اسْتَعِنْ بِاللهِ**» دون قوله: «**وَلاَ تَعْجَزْ**»، ولذلك حين يموت الطاغوت يأتي غيره، وحين يذهب المحتل فإنه يُورث هذا الشعب الجبان المُتخاذل الجاهل محتلاً آخر له سِمَّة جديدة وحِلَّة جديدة، يجري عليه كل ما يفعله الكافر الأصلي بل أشد منه وأعظم، لكن لما كان قادة الأُمة من فُقهاء العصر يعلِّقون الأحكام على مَنَاطَاتٍ باطلةٍ كالأسماء أو الألوان أو الصور أو الأنساب التاريخية فإنَّ حِيَّلَ هذا البديل تنطلي عليهم، ثم يزيد الأمر سوءاً أن يصبح بين الطرفين حالة استمتاع، أي بين الظالم والمظلوم، وبين الإله الباطل والتابع الجاهل وهي أشدُّ ما يُصيبُ الأُمم، كما قال تعالى عن هذه الصورة: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾**﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وهذه الحالة هي أشد ما يقع بين الإله الباطل الظالم وبين التابع الجاهل المظلوم، إذ يصبح خضوعه وعذابه وقهره لذة واستمتاع يُقاتل عليها، ويقتل من يريد أن يفكه ويخلصه منها، وهذه الصورة لا تقع في الوُجود إلاَّ على وجهين معاً أو على أحدهما؛ **أولاهما**: أنْ تقع على

وجه التعبد والإخبات، فيخضع التابع لمعبوده الباطل خضوع ذلة قلبية وهذا واقعُ الكثيرين من المشايخ، إذ أنهم لجهلهم في دين الله تعالى وقلبهم لحقائقه لا يلتفتون للواقع البتة بل هم أَسرى لِوَهْمِ النص والتقليد وإتباع الأقدمين دون التفاتٍ للمناط المُغايِّر بين واقعٍ مضى وواقعٍ معاصرٍ، **وثانيهما**: الجهل المُتجذر الذي يصنع الاستمراء والعُرف القاهر، ولا يخرج المرء من هذا الدين العجيب الذي يقبل به صاحبه الذلة والخضوع المهين إلاَّ بعلمٍ شرعيٍّ شديدٍ وعقلٍ سَنَنيٍّ رشيدٍ.



الخاتمة

إنَّ هذا الفقه العظيم حربٌ على فِقْهِ الركون والسكون والتثبيط في أيِّ بابٍ من أبواب الحياة، وهو حربٌ على فِقْهِ قبول الأمر الواقع وترك مُنازعته ومُدافعته، وهو رفعٌ لإرادة المرءِ المُسلم إلى معالي الأُمور وأعلاها وأنفعها لنفسه وللوجود، وفيه تتحقق الصناعة الربَّانيَّة للمرء المُسلم أن يُنازع الجِبال ولا يخشاها، وأنْ يخوضَ المجاهيل ولا يرهبها، وأن يقتحم الغد ولا يخشى الفشل أو الإخفاق.

إنه دعوةٌ نبويَّةٌ أنَّ الإخفاقَ في تجربةٍ لا يبعث يأساً، ولا تثبيط هِمَّةٍ، بل يزيد السالك إصراراً أن يعود مرةً بعد مرةٍ.

إنَّ ما يلزمكَ للذهاب بعيداً في تحقيق أعلى الأُمور هو أن تعلمَ سُنن الحياة كما هي دون أوهامٍ أو أساطير، بأنْ تقرأ التاريخ جيداً حتى تعلمَ ما هو الذي يحقق النفع للوجود، وما هو الذي يُغيِّر مسارات الحياة، وما هو الذي يحيي الأُمم وشعوبها فتحرص على ذلك كُلِّه، ثمَّ أنْ تضعَ رِجْلِكَ على الجادة السليمة مُستعيناً بالله، ثُمَّ لا عليك من كلِّ الموانع فإنَّ وُجودها قدرُ كلِّ الوجود، إذ لا يُوجد في الوجود هدفٌ بلا موانع ومشاق، بل استعنْ بالله وذلك بالتوكل القلبي، والثقة بالوعود الإلهية وبالأخذ بالسُّنن الربَّانيَّة والتي هي أوامر يجب إتباعها، فإنْ حصلَ المطلوب فهو ما تحبُّ ويحبُّ الله لك، وإنْ كانتِ الأُخرى فلا تخافِ العار ولا الإثم ولا تستمع لكلِّ أُولئك الأخباث الشياطين ممن جلسوا على شاطئ الهَوان والكسل والبطالة مُدَّعِين الحِكمة أنهم جربوا وخبروا فلم يجدوا سبيلاً بعد ذلك إلاَّ الركون للباطل، وكفى بهذا الاسم ـ أي الباطل ـ عاراً أنه يعني الفَراغ والذهاب، وهم كذلك في فراغٍ مِن عملٍ جادٍ، وفي ذهابٍ إلى اللاشيء.

يكفيكَ شرفاً إنْ مت أنك متَّ وأنتَ تسعى، ويكفيكَ عِزاً إنْ ذهبتَ إلى الله وأنتَ في ذلك أنك ستُدْعَى يوم القيامة تحت لواء محمد ﷺ لأنَّ المرءَ يحشر على ما ماتَ عليه، فشتان بينك وبين من مات وقد غزا اليأس قلبه، وامتلأ قلبه بالهوان والكفر بالوعود الإلهية أنَّ النَّصر آتٍ.

إيَّاك أنْ تُغيِّر الطريق الصعب حين تخفق في الوصول إلى هدفك راضياً بالفُتات الذي يجنى بلا مشقة ولا تعب، بل «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»، ولا يكون هذا إلاَّ بالطريق الصعب الشاق، لأنَّ هذا قدر الحياة.

تعلمْ أنَّ الإخفاق والفشل ليس عاراً ولا عيباً ولكنَّ العيبَ والضلال هو مدُّ الأرجُلِ والألسنة، كسلاً وتعالماً غثاً وقطعاً للطريق على السالكين إلى رضى الله وبلوغ ما يحبون، فإنْ رأيتَ أحداً يدَّعِي المُراجعة ثمَّ آلت به المُراجعة إلى تغيِّير الطريق فاعلمْ أنَّ قلبه صار مأوى للشيطان، وسيصير به الحال أن يكون عضواً في مملكته بل وجُنْدِياً من جُنوده.

لقد فتحت ملفات «**لو**» عند البعض في بدايات الطريق دون أن تنشق الحياة عن النتائج، وجعلوها سبيلاً للنُكُوصِ والتراجع والاعتذار إلى الطواغيت، ففرح الشيطان وبدأ عمله، لأنه وجدَ له في قلوبهم موطن قدم ورغبة استلذاذ بينهما.

إنهم يفتحونها تحت دعوى المُراجعة والمحاسبة والتقيِّيم، ولو صدقوا لكانتِ المُراجعات والمحاسبة والتقيِّيم تُؤدي إلى نتيجةٍ واحدةٍ وهي أنَّ سُنن إزالة الباطل لا تتغيَّر، وأنَّ أحكام الإيمان لا تزول، وبذلك يتعاهدون أن يعودوا مرةً بعد مرةٍ حتى يُقام بُنْيَّان الحقِّ وتزول أوهام الباطل.

دَعْكَ مِن «**لَوْ**» هذه فإنها لم تُقَلْ يوماً من زاعمِ حِكمةٍ وتجربةٍ إلاَّ وهو يخفي تحتها قصد ترك الطريق والركون للهوان والبطالة، وهم يقولونها سِتراً وتعميَّة لما بيَّتُوا في أنفسهم، لكن التحاقهم بركب جُند الشيطان عَلَمَهُم أنْ يسلكوا سبيلهم

في السير إلى مُرادهم خطوات لا دفعة واحدة، تهويناً للجرم الذي بيَّتُوا أنفسهم للوصول إليه.

لقد نهانا الحبيب المصطفى ﷺ من قول «**لَوْ**» حتى لو أخفقنا ولم يكنْ ما نحب ويحب المؤمنون فكيف بمن يريد أن يقولها والنَّاس في البدايات وفي معمعة الطريق، ثم ما هو دين هذا المرء الذي يجعل باب فتحها طريقاً لقلب الحقِّ باطلاً والإيمان كفراً والعمل لدين الله تعالى عاراً يعتذر منه؟!!!

اللهمَّ غُفرانكَ لا كُفرانكَ، وإنا نسألكَ وأنتَ الرحيم السدَّاد والرُّشد والقُوة، وأنْ تختمَ لنا هذه الحياة وعلى أقدامنا غُبار الطريق غير مُبدِّلِين ولا ناكِصين ولا يائسين. آمين.. آمين.

تم بحمد الله

☆☆☆☆☆
☆☆☆☆
☆☆☆
☆☆
☆

قائمة المراجع

⦿ «**الرسالة**» للإمام المطلبي محمد إدريس الشافعي. تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر. طبعة مكتبة التراث/القاهرة. الطبعة الثالثة ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م.

⦿ «**بهجة المجالس وأُنس المجالس وشحذ الداهن والهاجس**» لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي. تحقيق: محمد مرسي الخولي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت.

⦿ «**دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

⦿ «**سُنن أبي داود**» لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت.

⦿ «**سير أعلام النبلاء**» لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٧م.

⦿ «**صحيح البخاري**» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الْمُغيرة البخاري. طبعة دار ابن كثير. الطبعة الخامسة ١٩٩٣م.

⦿ «**صحيح مسلم**» لأبي الحسين مسلم بن الحَجَّاج بن مسلم القشَيري النيسابوري، طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٢م.

⦿ «**مُسند أحمد**» لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت. الطبعة الثانية. ١٩٩٣م.

⦿ «**مُسند سعيد بن أبي وقاص**» لأبي بكر البزاز أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن شاذان. طبعة دار البشائر الإسلامية/بيروت. ١٩٨٧م.

⦿ «**مقاييس اللغة**» لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت. ٢٠٠١م.

الفهرس